الشرارة

كارل ماركس
الإنسان
كارل ماركس
عقل العالم

بقلم جميلة صابر

عدد خاص

العدد الرابع
ماي 2019

المركز الماركسي ـ اللينيني للدراسات والأبحاث والتكوين

ينشر موقع الشرارة الماركسي ـ اللينيني إصدارا خاصا من كراسات الشرارة، العدد الرابع، يحمل عنوان: **"كارل ماركس، الإنسان، كارل ماركس عقل العالم"**، وهو يتضمن سلسلة من المقالات تحمل نفس العنوان، بقلم جميلة صابر، كان الموقع قد أطلق بدايتها في سياق إحياءه للذكرى المئتين على ميلاد المعلم البروليتاري العظيم كارل ماركس بشعار "في الحاجة إلى كارل ماركس والفكر الشيوعي الثوري".

محاور العدد

تقديم 5
في الذكرى المئتين لميلاد المعلم البروليتاري العظيم كارل ماركس 5
I – الولادة، التأثيرات و السياق التاريخي لنشأة كارل ماركس 8
1 - كارل ماركس بين تريف، برلين، بون وكولونيا 8
2 - تأثير الأب هنريش والجار ويستفالن 10
3 - السياق التاريخي لنشأة كارل ماركس 16
II – محطة فرنسا والتقاء المناضلين الثوريين الأمميين: فردريك انجلز و كارل ماركس 18
1 - الهجرة نحو فرنسا والمنعطف الفكري – الإيديولوجي لماركس 18
2 – 1844 أهم منعطف في حياة ماركس: الالتقاء بفردريك انجلز 20
III - انجلترا: بلاد الرأسمالية المتطورة، التي أنتج فيها كارل ماركس أهم أعماله، كتاب "الرأسمال": (1849 – 1859) .. 25
1) ماركس المطارد من بلد لآخر 25
2) ماركس في لندن: وقت قصير للفرح، وقت طويل للحزن 28
IV - سنوات الشباب : إنتاج غزير و بؤس وفير 38

1) 1860 – 1864 : السنوات العصيبة 39
2 - 1864– 1870: تنتهي الهموم المادية لماركس و يغزر إنتاجه الفكري 42
V ـ كارل ماركس: نهاية الرحلة، 1870 – 1883 46
1 – مستشار البروليتاريا المناضلة الذي يتعب و لا يلقي السلاح 46
2 - عقل العالم يتوقف عن التفكير و يرحل إلى الأبد 56
الملحق: الحب و رأس المال، الأمس و اليوم (ماري غابرييل)، مقابلة أجراها الصحافي ديفيد بيستيو مع ماري غابرييل 63

تقديم:

في الذكرى المئتين لميلاد المعلم البروليتاري العظيم كارل ماركس

تخلد البروليتاريا العالمية وشعوب الأرض المضطهدة هذه السنة، الذكرى المئتين لميلاد المعلم البروليتاري كارل ماركس. في الخامس من ماي، تحتفل الطبقة العاملة في كل بلاد العالم بهذه الذكرى، مستحضرة أفكار هذا المعلم، الذي زودها بسلاحين أساسيين، لتحررها من الاستغلال والاضطهاد الطبقيين، ألا وهما، المادية الديالیكتيكية والمادية التاريخية.

في استحضار هذا اليوم نجد البورجوازية واقتصادييها ومثقفيها يحاربون أفكار ماركس علنا، ويبحثون سرا في كتابه الرأسمال عن حلول لأزماتهم الاقتصادية، التي تنتقل من طور إلى طور آخر جاعلة من نظرياتهم الاقتصادية أضحوكة على كل لسان. أما الانتهازيون بكل أصنافهم من إصلاحيين وتحريفيين فتعاملهم الانتقائي مع فكر ماركس واضح بين غير مستتر. فقط الماركسيون- اللينينيون والثوريون والبروليتاريا العالمية وشعوب الأرض المضطهدة من يحتفون بميلاد ماركس احتفاء حقيقيا.

لقد مرت على ميلاد كارل ماركس مئتين سنة، ورغم ذلك لا زالت وستظل أفكار ماركس والماركسية تشكل شبحا بالنسبة لأعداء مشروع المجتمع الإنساني الشيوعي الذي تزول فيه الفوارق الطبقية ويخلو من الاستغلال الطبقي.

إن البورجوازية المهيمنة اقتصاديا وسياسيا على العالم يخيم عليها شبح ماركس وأفكاره المرعبة لوجودها، لهذا فهي تبذل كل الجهود، من أجل إزاحة هذا الشبح عبر تغييب أفكاره وتشويهها في المقررات المدرسية والجامعية في كل المجالات التي كان ماركس رائدها، في الاقتصاد والفلسفة، في العلوم الاجتماعية والتاريخية، بل تطرده من كل الفضاءات التي يعد حضور فكره فيها قويا، إنه الرجل الأكثر كرها من طرف البورجوازية، وإليه تنسب كل الجرائم في التاريخ، والتي في الحقيقة ليست إلا

جرائمها، جرائم الاضطهاد والاستغلال، التي فضحها ماركس وعراها سياسيا وإيديولوجيا، عندما أوضح الدور العالمي التاريخي للبروليتاريا بوصفها بانية المجتمع الاشتراكي و مشروع المجتمع الشيوعي.
لقد استحوذ الفكر الماركسي على عقول الملايين من الناس، وذلك نظرا لما ميز الماركسية عن باقي النظريات والمذاهب ألا وهو روحها الثورية.
كان ماركس ذلك الكابوس الذي ظل وسيظل يطارد كل الأعداء الطبقيين للبروليتاريا وكادحي العالم، لأن رسالته في الحياة كانت الإسهام بشكل أو بآخر في تقويض المجتمع الرأسمالي، والمؤسسات التي خلقها، من أجل تحرير البروليتاريا، والكفاح كان ميدانه، فكان يكافح بحماس وعناد ونجاح منقطع النظير، لذلك كان كارل ماركس، الرجل الذي مقت وكره وافتري عليه أكثر من غيره في زمانه، فقد نفته الحكومات الاستبدادية منها والجمهورية، واجتمع ضده المحافظون والديموقراطيون، لكنه لم يهتم بكل هذا إلا عند الضرورة القصوى، وحتى لو كان له الكثيرون من المعارضين، فلم يكن له أعداء شخصيون، لأن كارل ماركس ضد شخصنة الصراع، وكان يعتبر ذلك أسلوبا مقيتا، بنفس القدر الذي كان يرفض به المدح، لذلك مات وسط محبة وإجلال وبكاء الملايين من الرفاق الثوريين من أقاصي مناجم سيبيريا إلى كاليفورنيا، ومن أوروبا إلى أمريكا، وما زال يحتفظ بحب كل الثوريين والثوريات الآن وغدا وبعد غد، ولكل ذلك سيخلد اسمه عبر العصور، وكذلك أعماله، وتحتفظ له النساء بفضله عليهن.
كانت التهجمات الشخصية على ماركس قد بلغت مستوى من الجنون والغباوة، كانت تضطره إلى الرد عليها، وهي لا زالت، وقد رد عليها لينين بالثورة البلشفية المجيدة وماو تسي تونغ بالثورة الصينية العظيمة.
لقد أكمل ماركس وأتم على نحو عبقري التيارات الفكرية الرئيسية الثلاث الأكثر تقدما بين البشر في القرن 19 : الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، والاقتصاد السياسي الكلاسيكي الانجليزي، والاشتراكية الفرنسية، المرتبطة بأفكار الثورة الفرنسية بوجه عام، هذه الأفكار التي تؤلف مجموعها، المادية والاشتراكية العلمية المعاصرتين، بوصفهما نظرية الحركة العمالية، وبرنامجها في جميع البلدان المتمدنة في العالم.

إن الأعمال العظيمة لماركس في التاريخ يشهد عليها لينين ، عندما قال إن الشيء الوحيد الذي كان يستحوذ على اهتمام ماركس (ومعه رفيقه انجلز) أكثر من أي شيء آخر، وأن الشيء الذي كرس له الأمور الأعظم جوهرية، والأكثر جدة، والشيء الذي يشكل التقدم البارع الذي حققه في تاريخ الفكر الثوري، كان هو تطبيق المادية الديالكتيكية بإعادة صياغة الاقتصاد السياسي بكامله، بدءا من أسسه وصعودا إلى التاريخ والعلوم الطبيعية والفلسفة وسياسة الطبقة العاملة وتكتيكها.
لن نخوض في هذا المقال في ما أنتجه ماركس من فكر في جميع المجالات، إلا ما جاء عرضا ونحن نستعرض مسار حياة هذا المعلم الثوري، إن هذا المقال يركز بالأساس على ماركس الإنسان، على مآسي عقل العالم هذا، على فقره المدقع، على صحته المعتلة، على أمراضه التي اجتمع فيها ما تفرق على غيره، سنتحدث بالأساس عن حرارة ماركس الإنسانية، عن صداقته ورفاقيته، عن ماركس المحب العاشق، ماركس المحبوب، ماركس وتربية الأبناء، ماركس الشاعر ومتذوق الآداب والفنون، ماركس صرامة الضمير، ماركس المنبوذ والمطارد من فضاء إلى آخر، ماركس الأممي الذي نزعت عنه هويته ولم يضره ذلك في شيء، ماركس الذي يهتم بكل شيء، ماركس جدلية الضعف والقوة، باختصار نركز على ماركس في جميع أحواله الإنسانية، لنصل إلى خلاصة مفادها، أنه وسط هذا الكم من العلل والأدواء في هذا البحر من المآسي أنتج ماركس ما لا يقدر عليه أعتى الأصحاء، فقد ظل العقل متيقظا والذكاء متوقدا، لا يشوش عليه إلا عزيز تم فقده وضيق ذات يد تجعله عاجزا عن القيام بمسؤولية، هذا هو ماركس العظيم الذي يتناوله هذا المقال.

جميلة صابر
2018.5.5

كارل ماركس، الإنسان، كارل ماركس عقل العالم

-١-

I – الولادة، التأثيرات و السياق التاريخي لنشأة كارل ماركس

1 - كارل ماركس بين تريف، برلين، بون وكولونيا

ولد كارل ماركس يوم 5 ماي من سنة 1818 في مدينة تريف جنوب غرب ألمانيا، من أسرة بورجوازية صغيرة يهودية، اعتنقت البروتستانتية حماية لنفسها من الاضطهاد، ولكي يحافظ والده هنريش ماركس على مهنة المحاماة التي كان فيها محاميا لامعا، وقد كان الأب من عائلة ميسورة وكان وطنيا ليبراليا متنورا قارئا للفلسفات الفرنسية للقرن الثامن عشر.

أتم ماركس الدراسة الثانوية في مدينة تريف مسقط رأسه، ثم التحق بالجامعة في مدينة بون، ثم إلى جامعة برلين، وذلك في السنوات المتراوحة فيما بين 1835 و 1841. كانت دراسة ماركس في الحقوق والاقتصاد السياسي، لكن ميله كان للتاريخ، وللفلسفة بوجه خاص لعدة اعتبارات، منها أن الفلسفة كانت المجال الوحيد الذي لم تكن تتدخل فيه الحكومة البروسية بشكل سافر. حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة، وكانت أطروحته حول "الفوارق في فلسفة الطبيعة عند ديموقريتس

وأبيقور"، وقد ركب ماركس موضوعا صعبا مكنه من الإلمام بمجمل فلسفة الإغريق، وخاصة الفلسفة المادية والمنهج الدياليكتيكي وتطورهما.

عندما نال شهادته العليا، وبعد تخرجه استقر في مدينة بون، وكان طموح ماركس أن يحصل على منصب أستاذ في الجامعة، غير أن السياسة الرجعية التي كانت تسلكها الحكومة البروسية اضطرت ماركس إلى صرف النظر عن الحياة الجامعية والعزوف عنها.

انتمى كارل ماركس في شبابه لعدة نوادي فكرية، كان أبرزها "نادي الهيجليين اليساريين الشباب"، أي أن ماركس كان هيجليا في بداية مشواره الفكري، لذلك انضم إلى حلقة أتباع هيجل اليساريين في مدينة برلين.

في سنوات الأربعينات من القرن 19 أسس البورجوازيون الراديكاليون في رينانيا، الذين كانوا يلتقون في بعض الأفكار مع أتباع هيجل اليساريين، جريدة معارضة في مدينة كولونيا تسمى "الجريدة الرينانية"، التي كان أول صدور لها بتاريخ 1 يناير 1842، وقد دعي ماركس للعمل كأحد المحررين الأساسيين فيها، وفي أكتوبر من نفس السنة أصبح رئيس تحريرها، مما جعله ينتقل من مدينة بون التي كان يقيم فيها إلى مدينة كولونيا، حيث يوجد مقر الجريدة، وقد كان لكتاباته السياسية والفلسفية وقع كبير على الرأي العام، مما جعل السلطات تمنع الجرائد التي كان يكتب فيها. ولأن ماركس لم يستطع ولوج الجامعة كمدرس كما كان يتمنى ، فقد كانت الصحافة الوسيلة الوحيدة التي توفر له عملا ممكنا، وقد قاده عمله في "الجريدة الرينانية" إلى التطرق لقضايا متعددة ودراسة الفكر الاشتراكي والشيوعي.

2 - تأثير الأب هنريش والجار ويستفالن

كان لكارل ماركس ست إخوة، واحتل ماركس الابن الثاني في الترتيب، وقد أدرك والد ماركس منذ وقت مبكر أن أولاده الآخرين لم يكن فيهم من يتمتع بأية مواهب ممتازة، وقد كان له في كارل ابن صعب المراس يتمتع بذكاء حاد، متألق، يجمع بين مزاج عنيد ورغبة جامحة في الاستقلال، وقدرة كبيرة على ضبط الأعصاب، كان حدس الأب صادقا وتقييمه لابنه في محله، فقد ظلت هذه الصفات ملازمة لماركس طيلة حياته، تدعمها عدة شهادات من الرفاق والأصدقاء والمناضلين وحتى الأعداء، قيد حياته، أدرك الأب هنريش مبكرا أن صلابة ابنه، وهي صفة أخرى لكارل، لابد أنها ستكون مثار عداوة، كما رأى أنها قد توقعه يوما في مشاكل خطيرة، و أبدا لم يكن حدس الأب خاطئا.

كان الدور الذي لعبه الأب هنريش في حياة ماركس كبيرا، حتى أنه عندما أنجب أول ابن له كان يريد ان تكون علاقته به كالعلاقة التي كانت له مع أبيه، لكن، وفي الوقت الذي كان تأثير الأب كبيرا على ماركس، فإن الأم على العكس من ذلك، فلم تلعب أمه في حياته إلا دورا صغيرا وتأثيرا باهتا، وبذلك فالتعلق بالأب كان أكبر من التعلق بالأم. وكان من الناس أيضا، الذين مارسوا تأثيرهم الشديد على كارل ماركس، السيد ويستفالن والد جيني التي ستصبح زوجة ماركس فيما بعد، فقد كان حبه له شديدا، فقد تمكن ويستفالن أن يقوي إيمان ماركس بنفسه وبقدراته وأن يصبغه بصبغة إنسانية، وهو الإيمان الذي ظل أبرز طابع في ماركس في جميع فترات حياته، وقد كان من أثر ذلك أن ماركس بالرغم من حساسيته غير العادية واعتداده بنفسه وعلى الرغم من كبريائه، كانت الشخصية التي تواجهنا طوال أربعين عاما متصلة من المرض والفقر والنضال المستمر، شخصية إيجابية واثقة من نفسها ثابتة الكيان.

كانت إذن لماركس اليافع علاقة خاصة برب الأسرة لودفيغ فون ويستفالن، الذي نهل منه أول تكوينه أكثر مما أخذ من أبيه، فالأرستقراطية الليبرالية التي كانت تمثلها عائلة ويستفالن عرفت صديقها الشاب وفتحت عيونه على الكتابات "المدمرة" التي كانت تروج في ريناليا، كتابات الاشتراكيين الفرنسيين خاصة سان سيمون، وقد بلغ من تأثر ماركس بمعاملة جارهم ويستفالن، الذي كان يستقبله في منزله بأدب وحسن ضيافة نادرة، أنه ضمن الرسالة التي أعدها للدكتوراه إهداءا متأججا لويستفالن، زاخرا بالإعجاب وعرفانا بالجميل، لأن الرجل ساهم في منحه التوازن النفسي في سن كان فيها ماركس شابا وفي أمس الحاجة لهذه المساندة المعنوية، وفي سنة 1837 تقدم ماركس لخطبة ابنته جيني، -حبه وعشقه الذي عاش معه كل الأحاسيس النبيلة- وحصل على موافقته بدون أدنى صعوبة وبدون أدنى تردد، فالرجل لن يجد أحسن من شاب كماركس زوجا لابنته، وهو الذي خبر معدنه وقرأ خبايا صدره العامر بالحب الجياش والأحاسيس النبيلة وعقله المليء بالأفكار المتمردة الخارجة عن المألوف.

في سن 17 كان ماركس ذلك الشاب الرومانسي، فقد كان يقرأ قصائد الشاعر الشاب **هيينه**، كان يرقص، يركب الفرس، لقد كان مليئا بالحياة، كان يرى أن الأدب يليق به ولذلك كان يريد أن يجرب مهنة أدبية.

تولد بين كارل ماركس والجميلة جيني ويستفالن حب قوي ودائم، رغم اختلاف وضعهما الاجتماعي والتباين في السن (كانت تكبره بأربع سنوات)، وعندما عاد إلى تريف قادما إليها من بون حيث يتابع دراسته الجامعية ارتبط بخطوبة سرية مع جيني، وقد اعترف بذلك لأبيه، الذي أرعبه الخبر، لعدة اعتبارات أولها، بسبب صغر سن كارل ماركس، الشيء الذي من شأنه أن يعطله أو يلهيه عن المستقبل الذي يريد الأب للابن، وأيضا لما يمكن أن يحدثه ذلك الارتباط بجيني من فضيحة حول هذا

الزواج، في مدينة صغيرة يسهل أن يعلم سكانها بالخبر، ولم يكن أمام الأب إلا أن يبعد ولده ف"صدره" إلى برلين، "مركز كل ثقافة وكل حقيقة" كما يقول هيجل في خطاب تمت قراءته عند افتتاح جامعة برلين سنة 1818 (سنة ميلاد ماركس).

في برلين، وفي خريف 1836، فإن كارل ماركس، الذي هو الآن في سن 18، قد فهم أن زمن الصبيانيات قد ولى وانتهى، لذلك فقد انطلق بشكل جنوني نحو الدراسة، فقد قرأ كل الكتب التي تسقط تحت يديه، و أصبح قارئا نهما لكتب القانون والتاريخ والجغرافيا، وخاصة الفلسفة، وما زالت مع ذلك تظهر موهبته أدبية أكثر منها فلسفية، فقد كرس لياليه لكتابة الشعر، حول حبه، حول جيني، وحول نفسه، والأمر لا يبدو غريبا بالنظر إلى كونه في بداية الشباب وتغمره الأحاسيس الفياضة والجارفة. كتب ماركس:

لم أعد أشتغل بهدوء

بما استحوذ على روحي من قوة

لا أستطيع البقاء في سلام منذ الآن

أنطلق بشغف نحو العمل

كل شيء أريد إخضاعه

كل افضال الآلهة

وامتلاك المعرفة

معانقة الفن كله

وهكذا يعبر ابن 18 مسبقا عن طمعه وعن حس المجموع لديه.

خلال هذه السنوات الخصبة من حياته، فإن التوفيق بين العمل الشاق وارتياد أماكن شرب الجعة، حيث يلتقي المثقفين الأكثر تقدمية في عصره أي اليسار الهيجلي قد أثر على ماركس، ولم يعد ينام، وسرعان ما سيسقط مريضا، وهو مرض يتطابق مع مرض جيني حبيبته، وذلك بسبب الفراق والقلق، مما تسبب له في أزمة أحرق على إثرها أشعاره ومشاريع رواياته وتراجدياته، ومن هنا ستكون القطيعة مع الأدب، الذي هجره نحو الفلسفة.

كان التعبير عن هذا التحول نحو الفلسفة، تلك الرسالة الطويلة إلى والده، ذات النبرة الفلسفية، والتي يرجع تاريخها إلى 10 نونبر 1835، يحكي له فيها عن هذه الأزمة الأولى والحاسمة في حياته، إذ رسم تحليلا لوضعيته، منطلقا من مبدإ مركزي، وهو أن كل حياة هي تعبير عن جوهر عقلي، التي تتجلى في نفس الوقت في الفن، في العلم، في الوجود الخالص.

منذ التحاقه ببرلين، حاول الطالب ماركس كتابة فلسفة الحق، التي تقوم على إظهار التناقض بين الواقع والمثال، وهكذا، فحتى يدرس بعمق الفلسفة والهيجلية، فقد بدأ يفهم الدياليكتيك المحلي ، ونظرية الصيرورة، تناقضات مرتبطة بالأشياء الملموسة كتعبير ملموس للعالم الحي ، وسيتعلق ماركس بالاتجاه النقدي المنبثق من الهيجلية، اتجاه يستخرج من الدياليكتيك تحليلا نقديا للدين والثقافة والمجتمع، لكنها تبقى مجردة.

لقد كان عند ماركس شيء أكثر مما عند أصدقائه، فقد استشعر اثنين من المتطلبات، تلك المتعلقة بالدخول مع الواقع "الملموس" من جهة، وتلك المتعلقة بتغيير هذا الواقع بشكل حيوي. وإذا كان كارل ماركس إلى غاية هذا الوقت ما زال يكتب

شعرا، فلكي يعلن هذا المتطلب المؤمن بالإنسان، فقد كان يمتلك خيالا شعريا لا مثيل لثرائه، لذلك كانت أول أعماله الأدبية أشعارا، وهو عموما محب وشغوف بالأدب، وكان الأديب الفرنسي هتري دو بالزاك الروائي المفضل لديه، وإذا كانت صفة الأديب قد ميزت كارل ماركس في شبابه، فقد أضاف إليها صفة الفيلسوف، وهي الصفة التي ستلازمه طيلة حياته.

يقول موزيس هيس لأحد أصدقائه وهو برثولد أورباخ عن ماركس وذلك في سنة 1842 :

"تستطيع أن تتهيأ للقاء الفيلسوف العظيم، وربما الوحيد الحقيقي، في الجيل الحالي (...)، تخيل روسو وفولتير وهولباخ ولايبنغ وهينه وهيجل مجتمعين في شخص واحد – أقول مجتمعين – فلديك الدكتور ماركس".

في 16 أكتوبر من سنة 1842 يكتب ماركس أولى مقالاته السياسية "الشيوعية"، وبذلك ستكون السياسة المنعطف الثالث في حياة ماركس بعد الأدب والفلسفة، وسيظل عليه إلى آخر رمق.

كان ماركس يريد حينذاك كتابة مقال حول الملكية، فظهر له أن معارفه في الاقتصاد السياسي لا تزال ضعيفة، -وقد أدرك ذلك بالأخص، عندما كان صحافيا في "الجريدة الرينانية"- فانكب على دراسته بكل حماس - في لندن، منفاه الأخير، و سيعمق هذه الدراسة أكثر فينهمك عندئذ في قراءة الاشتراكيين الفرنسيين وخاصة كتابات سان سيمون- الذي طالما حدثه عنه أبوه - الذي يؤكد على المساواة بين الرجال والنساء، وأولوية الاقتصادي على السياسي ، ويقرأ مؤلفات سيسموندي وجيمس ميل (والد جون ستيوارت)، ويقرأ أعمال لويس بلان ومؤلفات شارل فوريي وروبرت أوين، ويقرأ أيضا مؤلفات برودون. كل هذه القراءات ستكون أساس التطوير الذي سيدخله ماركس في كل ما يتعلق بالاقتصاد بمنهج مادي جدلي، ويرى ماركس عندئذ

أن الاقتصاد أساس كل العلوم الاجتماعية الأخرى، وأن لا شيء يمكن الإفلات من قوانينه أو من قوانين المادية، فيتخلى عن الاشتراكية الطوباوية و ستولد معه الاشتراكية العلمية.

في سنوات الأربعينات من القرن 19، أسس البورجوازيون الراديكاليون في رينانيا، الذين يلتقون في بعض الأفكار مع أتباع هيجل اليساريين، جريدة معارضة في مدينة كولونيا تسمى "الجريدة الرينانية"، كان أول صدور لها بتاريخ 1 يناير 1842، وقد دعي ماركس للعمل فيها كأحد المحررين الأساسيين، وفي أكتوبر من نفس السنة أصبح رئيس تحريرها، مما جعله ينتقل من مدينة بون التي كان يقيم بها، إلى مدينة كولونيا حيث يوجد مقر الجريدة.

لكن ألمعية كتاباته في الجريدة جعلته ينتقل من مجرد كاتب على صفحاتها إلى الإشراف على إدارتها، و لما أصبحت "الجريدة الرينانية" تحت إدارة ماركس، عرفت نجاحا كبيرا، حيث تضاعف عدد مشتركيها ثلاث مرات، وكان الكثير يسارع في الكتابة فيها، غير أنه في بروسيا، ليس ممكنا لأحد أن يكون صحافيا أو أستاذا للفلسفة، إذا لم يكن ذلك بأمر السلطة، لذلك تم منع الجريدة، وهو منع ارتبط أساسا بالموقف الذي اتخذه ماركس حول حق الملكية، ولأنه تحت إدارة ماركس أصبح اتجاه الجريدة الديموقراطي الثوري أكثر وضوحا، فقد عرض ذلك الجريدة للرقابة من طرف الحكومة الرجعية القائمة، فتخلى ماركس عن إدارة تحريرها، إلا أن مصير الجريدة انتهى بها إلى المنع من الصدور في السنة الموالية لصدورها سنة 1843، و ما لبث ماركس بعد ذلك أن غادر عمله في الجريدة، وعلى إثر ذلك سيغادر إلى فرنسا قاصدا باريس، وسيكون ذلك أول خروج لماركس من ألمانيا الذي سيكون له ما بعده.

3 - السياق التاريخي لنشأة كارل ماركس

لفهم محتوى الماركسية وخلفيات تبلورها في سياقها التاريخي، المرتبط بما كان يحدث في أوروبا، و للوقوف عند نشأة كارل ماركس، لابد من تطبيق منهجية المادية التاريخية على هذه النشأة، من خلال دراسة السياق التاريخي لنشأته.

فكارل ماركس ولد في بداية القرن 19 ، وهي فترة كانت لا تزال تشهد إرهاصات ما بعد الثورة الفرنسية لسنة 1789، التي كانت بمثابة ثمرة عصر الأنوار، الهادف إلى التخلص من ظلمات عصر الإقطاع وسيطرة الكنيسة، وذلك لما كانت تعنيه على عدة مستويات، فعلى المستوى الاقتصادي انهيار نمط الإنتاج الإقطاعي، وعلى المستوى السياسي والإيديولوجي انهيار تام لهيمنة الكنيسة وأمراء الإقطاع والملكية المطلقة، ولم تكن الأحداث التي عجلت بانهيار النظام الإقطاعي الذي عمر طويلا بالأمر اليسير، فسقوط نظام اقتصادي وسياسي لا يحدث بين عشية وضحاها، بل هو نتيجة تراكم صراع طبقي اقتصادي وسياسي وإيديولوجي وثقافي دام أربعة قرون (من القرن 15 إلى القرن 18).

ولا شك أن انتصار عصر الأنوار اقتصاديا وفكريا وإيديولوجيا على المجتمع الإقطاعي العتيق، كان له وقع كبير على البيئة التي نشأ فيها كارل ماركس، كما أن انتصار البورجوازية السياسي والاقتصادي والإيديولوجي لم يكن دائما حاملا لبوادر التقدم ومبادئ الثورة كالحرية والمساواة والإخاء، وهي شعارات الثورة الفرنسية. فقد استعمرت الشعوب الأخرى من طرف البورجوازية التي حملت تلك الشعارات، وتمت إبادة بعضها بالكامل واتجرت في شعوبها على أساس اعتبارهم كعبيد، حيث بيع منهم الملايين، وتم ترحيلهم نحو أمريكا للعمل في مزارع القطن ومناجم استخراج الذهب والفضة، كما أن نمط الإنتاج الرأسمالي الناشئ، كان، من جهة، يحقق الأرباح الخيالية للبورجوازية، التي بدأ نجمها يسطع، وسلطتها الاقتصادية تتقوى من جراء تراكم الثروات المنهوبة من المستعمرات، بينما كانت تخلق في المقابل البؤس والفقر، حيث كان يفرض على العمال

المبلترين، الذين تم حرمانهم من وسائل الإنتاج كأقنان أرض في النظام الاقتصادي والاجتماعي السابق، العمل لساعات طويلة قد تصل إلى 18 ساعة في اليوم مقابل أجور زهيدة، وفي ظل شروط قاسية لا إنسانية، فمثل هذا التناقض العميق الذي ولد مع تطور نمط الإنتاج الرأسمالي كان لابد من أن يثير ردود فعل قوية، هنا كان ظهور الاشتراكية الطوباوية على يد عدد من المفكرين الأوروبيين بتزامن مع صعود نمط الإنتاج الرأسمالي، بمثابة رد فعل طبيعي على هذا التناقض ومآسي نمط الإنتاج الرأسمالي، فالماركسية إذن ظهرت كسيرورة طبيعية للفكر الاشتراكي المناهض للرأسمالية.

لقد تشكلت المصادر الفكرية لكارل ماركس في ثلاثة مصادر : من الفلسفة والتاريخ خلال فترة دراسته في ألمانيا، ثم من خلال استيعاب الفكر الاشتراكي ومنهج التاريخ السوسيولوجي الفرنسي والممارسة السياسية في كل من فرنسا وبلجيكا، ثم من خلال استيعاب عمق الاقتصاد السياسي الانجليزي والعمل على تطويره أثناء استقراره في لندن.

2018 . 6 . 13

كارل ماركس، الإنسان، كارل ماركس عقل العالم

- ٢ -

II – محطة فرنسا والتقاء المناضلين الثوريين الأمميين: فردريك انجلز و كارل ماركس

1 - الهجرة نحو فرنسا والمنعطف الفكري – الإيديولوجي لماركس

في خريف السنة التي غادر فيها عمله في "الجريدة الرينانية"- نحن هنا في سنة 1844- غادر ماركس إلى فرنسا قاصدا باريس ليواصل شغفه ونشاطه الصحفي، فأصدر هناك مجلة راديكالية، لكن لم يصدر من هذه المجلة المسماة "الحوليات الفرنسية - الألمانية " سوى العدد الأول، لأن الصعوبات الناجمة عن توزيعها في ألمانيا سرا اضطرتها إلى التوقف، وأيضا بسبب الخلافات مع أرلوند روجي، الذي كان هيجليا يساريا وأصبح من أنصار بسمارك، ومن خلال المقالات الصادرة في هذه الجريدة، تم الإعلان عن ماركس الثوري الذي كان يتوجه بالنقد لكل ما هو قائم بدون هوادة.

كان قرار ماركس الهجرة إلى فرنسا نابعا من كون الواقع الألماني لا يسعفه، ورأى أنه في فرنسا يستطيع أن يسهم بنصيب مبتكر في القضايا المثيرة التي كانت منتشرة في ذلك العهد، يقول ماركس مبررا هذا الانتقال:

"إن ألمانيا لم يعد فيها ما أستطيع أن أفعله، إن المرء لا يستطيع بها إلا أن يكون غير آمن على نفسه".

وكان ماركس قد سبقته شهرته إلى فرنسا، ففي ذلك الوقت، كان قد عرف عنه أنه صحفي متحرر ذو قلم حاد، أرغم على مغادرة ألمانيا لأنه دعا بعنف إلى الإصلاح الديموقراطي. عاما بعد ذلك أصبح ماركس معروفا لدى الشرطة في دول كثيرة بأنه شيوعي ثوري لا يقبل مساومة، لقد كانت سنوات 1843 – 1845 أكثر سنين ماركس خطورة وأبعدها أثرا، ففي باريس مر بمرحلة تكوينه الفكري النهائي، وفي نهايتها كان قد بلغ مكانا شخصيا وسياسيا واضحا، وقد كرس بقية حياته لتنميته وتحقيقه عمليا، ففرنسا هي ملاذ المنفيين و الثوريين من بلدان عديدة، لكن ماركس لم يستشعر ذلك الإحساس بالتحرر في باريس، الذي استشعره معاصروه، الذين أعلن بعضهم في ألفاظ ساحرة، أنهم قد وجدوا في باريس كل ما هو جميل يدعو إلى الإعجاب بالمدنية الأوروبية كلها، هذا الانبهار لدى معاصريه لم يكن حاضرا عند ماركس، فهو اختار باريس دون غيرها لسبب عملي محدد، هو أنها بدت له أكثر الأماكن ملائمة لإصدار مجلته "الحوليات الفرنسية – الألمانية".

كان ماركس منذ أيام دراسته يقضي معظم أوقات فراغه في القراءة، لكن إقباله على القراءة في باريس تجاوز كل الحدود، فقد كان يقرأ ليلا ونهارا، كما كان يفعل أيام اعتناقه الهيجلية في سرعة محمومة، وما أن انتهت سنة 1848 حتى كان قد تعرف على المذاهب السياسية والاقتصادية لكبار المفكرين الفرنسيين والإنجليز، وبدأ تأثير الكتاب الاشتراكيين الفرنسيين والكتاب الاقتصاديين الإنجليز يبدد ضباب الهيجلية، الذي أحاط به من كل جانب، وعقد ماركس مقارنة بين الحالة العامة في فرنسا

وبين الحالة في بلاده، فأثر فيه كل الأثر ما لاحظه في الأولى من مستوى أعلى بكثير في نواحي الذكاء والقدرة على التفكير السياسي، ويرى أن الألمان هم أكثر الشعوب الغربية تخلفا.

2 – 1844 أهم منعطف في حياة ماركس: الالتقاء بفردريك انجلز

في باريس سيظهر أشهر رفيقين في التاريخ، كارل ماركس وفردريك انجلز، فقد أضحى النطق بكلمة ماركس دون أن تكون مصحوبة بكلمة انجلز أمرا مستحيلا، فقد ارتبط الإسمان ارتباطا أبديا، فقد شكلا ثنائيا لم تنفصم عراه إلى أن فرق الموت بينهما. فما هي ظروف نشأة هذه العلاقة بين الرجلين ، وما هو المسار الذي أخذه ذلك اللقاء وتلك الصدفة الجميلة التي سيكون لها ما بعدها؟

في سنة 1844، سيحصل أهم منعطف في حياة ماركس عندما سيلتقي من سيصبح رفيقه حتى الممات وهو فردريك انجلز، ففي هذه السنة حل هذا الأخير بباريس، آتيا إليها من ألمانيا ليقضي بعض الوقت فيها، وهنا سيلتقي ماركس، وسيشكلان أشهر ثنائي في التاريخ، كانت بدايتهما، منذ هذا اللقاء في باريس، عندما أسهما كلاهما بالحماس الشديد في الحياة المحمومة للجماعات الثورية التي كانت آنذاك في باريس، وكانت هنا في باريس الشهرة لمذهب برودون، الذي سدد له ماركس الضربة القاضية في كتابه "بؤس الفلسفة" الذي صدر سنة 1847، ردا على فلسفة البؤس التي تمثلها البرودونية كمذهب اشتراكي بورجوازي صغير.

خاض كارل ماركس وفردريك انجلز هنا في فرنسا نضالا بالغ الحدة ضد مختلف نظريات الاشتراكية البورجوازية الصغيرة وصاغا نظرية وتكتيك الاشتراكية البروليتاريا الثورية، أي الشيوعية.

يصف انجلز لقاءه بماركس قائلا:

"عندما زرت ماركس في باريس إبان صيف 1844، ظهر على أننا على اتفاق تام في كل الميادين النظرية، وبدأ منذ ذلك اللحظة تعاوننا، فماركس لم يكن قد وصل فقط إلى رأيي ذاته، بل كان عميقا في "الحوليات الفرانكو – ألمانية" وفحواه أنه ليست الدولة في المحصلة هي التي تحدد سير المجتمع البورجوازي، إنما المجتمع البورجوازي هو الذي يحدد الدولة ويسيرها، فمن الواجب إذن تفسير السياسة وتاريخها انطلاقا من الظروف الاقتصادية وتطورها وليس العكس".

عندما التقى ماركس انجلز ظلا لعشرة أيام و عشرة ليالي يتكلمان، وفي نهاية المطاف وجدا نفسيهما يتفقان على كل شيء، كان كارل ماركس وفردريك انجلز المناضلان الثوريان الأمميان الذين جمعهما درب النضال الاشتراكي الثوري، فتخندقا في الصفوف الأولى للنضال البروليتاري، وانصهرت في خضمه أواصر الصداقة والتضامن التي جمعتهما إلى الأبد، ولا استغراب في ذلك، فقد كانت قائمة على المبادئ الثورية الصارمة، وعلى الروح النقدية الرفاقية المتفتحة.

في الأصل لم يكن ماركس يرتبط بالصداقة إلا مع قليلين، لكن صداقته مع انجلز كانت تغنيه عن كل الصداقات لأنها صداقة لا مثيل لها، كانت هذه الصداقة من العمق الكبير جدا كان أساسها الثقة والحب، حتى بلغت أنه في كل ما كان يكتبه ماركس، كان دائما يطلب رأي انجلز فيه، كما بلغ من عظمة انجلز أن هذا الأخير كثيرا ما كان يقوم بعمل وينسبه لماركس، والعكس صحيح، فلم يكن يضر الرجلين أن ينسب إنجاز أحدهما للآخر، لقد كان يشتركان في نفس التفكير و في نفس النضال، وهذا هو المهم بالنسبة للرجلين.

كان الشابان متشابهان ويكمل أحدهما الآخر، فكلاهما في حاجة إلى الكتابة، إلى هدف، إلى خصم يسمح لهما في ثنايا جملة ما بإحراز مراكز نظرية متقدمة، وكلاهما بحاجة إلى الإعتماد على وقائع، فهما صحفيان ثوريان بكل جوارحهما، لكنهما في نفس الوقت مختلفان بشكل ملحوظ، إذ أن الأول فقير، يميل إلى النظري، ارتبط بالأب أكثر من الأم، والآخر غني ذو فكر عملي، شديد الارتباط بأمه يكره الأب، الأول دكتور فلسفة والثاني أوقف دراسته مكرها قبل الدخول إلى الجامعة، الأول متزوج و الآخر لا يحرص على تكوين أسرة، لكن الإثنان لن يفترقا منذئذ لا في الحياة ولا في التفكير ولا في العمل.

ويقول بول لا فارغ عن علاقتهما:

"لقد حقق ماركس وانجلز مثال الصداقة الأعلى الذي وصفه شعراء العصور القديمة، وكان لهم أيضا أعداء مشتركين كثيرون".

كان بؤس ماركس وفقره وإملاقه يفوق كل وصف، فالرجل رب أسرة وعليه أن يعيلها، ولم يكن له عمل يتعيش منه، ولا أي مورد يعتمده، فإلى جانب أنه كان مضطهدا في أي بلد يحل به، لم يتمكن من الحصول على عمل، فإن مختلف الأمراض التي حاصرت جسمه كانت تقعده وتتسبب في عجزه عن القيام بأي عمل، لقد كان القشة الوحيدة التي يتعلق بها ماركس هي صديقه ورفيقه انجلز، فقد كان المنقد الوحيد لماركس، لقد ظل طيلة حياته إلى أن مات مدينا لانجلز بكل شيء له علاقة بالمال، ولم يكن انجلز أبدا مشتكيا أو متبرما، لأن القضية العظيمة التي يحمل همها تستحق كل التضحيات، لقد كان انجلز صندوق المال ذلك، الذي لا يبخل عن تلبية الحاجات المادية لماركس، لقد كان انجلز رفيقه وصديق عمره الوحيد الذي يحس بإملاقه، وقد كرس كل ثروة أبيه في خدمة القضية العادلة، قضية تحرير البروليتاريا، فلم يكن يبخل على رفيقه بما توفر له من مال، من أجل أن يستمر الرجل في إنجاز الأعمال العظيمة التي نذر لها، ولم تنذر لغيره، ومشاركته فيها بالنقطة

والفاصلة، حتى أنه يمكن القول أنه لولا وجود انجلز في حياة ماركس لما تمكن الرجل من إنجاز ما تم إنجازه من الأعمال العظيمة.

عندما كان كارل ماركس ينجز كتابه العظيم "ارأس المال"، كان الرجل في قمة البؤس، ولولا المساعدة المالية الدائمة المخلصة التي كان يقدمها له انجلز، لما تمكن من إنجاز هذا الكتاب، بل لولا هذه المساعدة لمات ماركس. لقد تم بشكل مستمر انتشال ماركس من الأوضاع البائسة التي كان يعيشها من قبل رفيقه المخلص فردريك انجلز.

في ظروف شديدة البؤس، فقد ماركس نصف عدد أبنائه، ومن شدة تأثره من بؤس صديقه، يقدم انجلز على القيام بتضحية كبيرة، إذ يتخلى عن العيش في لندن ويذهب إلى مانشستير للعمل في مصنع أبيه، لقد اضطره عوز ماركس إلى تقلد وظيفة رب المعمل التي يمقتها أشد مقت، ويفيد ماركس بجزء من راتبه ومن تحويلات مالية، وليس ثمة مثال آخر في تاريخ الأفكار والمفكرين على تضحية كهذه، ولن يعيد انجلز النظر فيها أبدا حتى وإن كلفته الكثير.

حدث أنه عندما فقد ماركس إحدى طفلاته، وفي رسالة تعزية إلى ماركس، عبر انجلز عن ألمه لفاقة أسرة ماركس، وللظروف الصحية المؤسفة التي أفضت إلى موت الطفلة، متأسفا لعدم قدرته على فعل المزيد لهم.

وقد كان أعداء الرجلين كثر، وكان انجلز الرجل الذي جعل منه الأعداء مجرد ممول لماركس، لكن لا هذا و لا ذاك كان مكثرتا لأقاويل المتقولين، لأن لا أحد يستطيع أن يقدر ما ستحدثه هذه الرفاقية من تأثير على تاريخ البشرية.

كان لماركس دائما إحساس باللوم للإرهاق المادي الذي يسببه لانجلز، وفي إحدى الرسائل المتبادلة بين الرفيقين (غشت 1862)، يقول ماركس:

"عزيزي فردريك: شكرا على الجنيهات الاسترلينية العشرة، إنه لينتابني شعور كبير بالانزعاج لأنك مرتبك في شؤونك المالية بسببي، لكن ما العمل؟"

كان انجلز تلك الطينة من البشر التي لا مثيل لها في التاريخ، فقد بلغ التواضع بالرجل حدا خرافيا، فكثير من الأعمال كان انجلز من يقوم بها، ولم يضره في شيء ان ينسبها لماركس، وقد عد انجلز أيضا مرجعا أساسيا بالنسبة لماركس، فقد كان دائما في كل ما يكتبه يطلب رأي انجلز فيه، وعندما انتقل ماركس للعيش في لندن لم يكونا دائما متواجدين في نفس المكان، بل إن تباعدهما المكاني كان الأغلب، لذلك فإن هذا الغياب ملأته الرسائل المتبادلة بين الرفيقين، حين كان كل طرف يطلع الآخر على كل المستجدات التي يعرفانها، وكل ما كتبه ماركس، وخاصة كتابه "رأس المال" يتبادل فيه ماركس الرأي مع انجلز، ويطلب مشورته، كما يطلب منه التصحيحات والتعديلات، ولم ينهكه من الكتب أكثر مما أنهكه تأليف كتاب "رأس المال"، الذي أخذ عمرا طويلا من ماركس، وكثيرا ما كان يقعده المرض فيتباطأ ماركس في العمل أو يتوقف، فيجد انجلز حاثا إياه وضاغطا عليه من أجل الإسراع في إنجاز الكتاب.

لقد قدمت هذه الصداقة للتاريخ مناضلان ثوريان أمميان، جمعهما درب النضال الاشتراكي الثوري، فتخندقا في الصفوف الأولى للنضال البروليتاري، وانصهرت في خضمه أواصر الصداقة والتضامن، التي جمعتهما إلى الأبد، ولا غرو في ذلك، فقد كانت قائمة على المبادئ الثورية الأممية الصارمة، وعلى الروح النقدية الثورية الرفاقية المتفتحة.

2018 ـ 09 ـ 21

كارل ماركس، الإنسان، كارل ماركس عقل العالم

- ٣ -

III - انجلترا: بلاد الرأسمالية المتطورة، التي أنتج فيها كارل ماركس أهم أعماله، كتاب "الرأسمال": (1849 – 1859)

1) ماركس المطارد من بلد لآخر:

توقفت إقامة ماركس في باريس في السنة الموالية لتلك التي حل فيها أي سنة 1845، حيث طرد منها بناءا على طلب الحكومة البروسية البسماركية الرجعية، بوصفه ثوريا خطيرا، فكانت وجهته بلجيكا، حيث أقام بها في مدينة بروكسيل.

في سنة 1847 انتمى ماركس و انجلز إلى جمعية سرية تسمى "عصبة العادلين"، التي ستصبح فيما بعد "عصبة الشيوعيين" و ذلك باقتراح من ماركس، وقد انعقد المؤتمر الثاني للعصبة في لندن في نونبر 1847، و قد كلف المؤتمر ماركس و انجلز بصياغة "بيان الحزب الشيوعي"، الذي نشر لأول مرة في لندن و ذلك في نهاية فبراير من سنة 1848.

في هذا الكتاب تم عرض المفهوم الجديد للعالم بوضوح و قوة بارزين، حيث يعرض المادية المتماسكة و الشاملة للحياة الاجتماعية، و الدياليكتيك بوصفه أوسع و أعمق علوم التطور، و نظرية الصراع الطبقي، و دورها الثوري في التاريخ العالمي للبروليتاريا، خالقة المجتمع الجديد، المجتمع الشيوعي.

كانت السنة التي صاغ فيها ماركس و انجلز "بيان الحزب الشيوعي" سنة الثورات البورجوازية في فرنسا و ألمانيا و النمسا، فطرد من بلجيكا و عاد إلى فرنسا، التي ما لبث أن غادرها إلى ألمانيا، فقد كان ماركس ذلك الرجل المطارد من فضاء لآخر، و في ألمانيا كانت إقامته في مدينة كولونيا، حيث سيصدر هناك الطبعة الجديدة للجريدة الرينانية، لذا سميت ب "الجريدة الرينانية الجديدة"، التي كان رئيس تحريرها لمدة سنة (1848 – 1849)، و التي قال عنها:

"لم يكن بالإمكان إعطاؤها إلا راية واحدة، راية الديموقراطية، لكنها راية ديموقراطية تظهر كل سنة طابعها البروليتاري الخاص، الذي لم تكن قادرة بعد على إعلانه".

بعد فشل ثورات 1848 و انتصار الثورة المضادة في ألمانيا، أحيل ماركس على القضاء (محاكمة كولونيا أو ما يسمي بمحاكمة الشيوعيين بكولونيا)، لكن تمت تبرئته، و تم نفيه في ماي 1849 فحل في البداية بباريس، لكن ما لبث أن طرد منها بعد المظاهرة، التي عرفها يونيو 1849.

كانت الأنشطة السياسية التي كان يقوم بها ماركس وراء طرده من البلدان الأوربية التي يلجأ إليها، من بينها مساهمته في تأسيس "عصبة الشيوعيين" و إشرافه على وضع "بيان الحزب الشيوعي" سنة 1848، اللذان كان لهما دورا تحريضيا على الثورات العمالية، التي حدثت في عدد من البلدان الأوربية.

ستكون آخر محطة لماركس الطريد، ووجهته الأخيرة نحو انجلترا، حيث أقام في لندن، التي عاش فيها حتى أيامه الأخيرة، الموطن الذي سيضم رفاته، بعيدا عن وطنه ألمانيا، التي جردته من جنسيته، فقد اضطر ماركس إلى مغادرة باريس، و ذهب ليعيش في انجلترا، غير أن الحياة فيها لم تؤثر فيه تأثيرا يذكر (إلا من الفواجع و المصائب و الآلام التي كابدها فيها)، فلندن لن تكون بالنسبة له، و لم تكن تعني بالنسبة له أكثر من مكتبة، مكتبة المتحف البريطاني، التي قال عنها:

"الموضع الاستراتيجي المثالي لدراسة المجتمع البورجوازي"، و **"مخزن الذخيرة، الذي يبدو أن أصحابه لا يدركون أهميته"**.

في 27 غشت من سنة 1849 ينزل ماركس بانجلترا (أول زيارة قام بها إليها تعود إلى سنة 1845) آتيا إليها من فرنسا. انجلترا، البلد الذي لا يملك من المال الذي يمكنه من الوصول إليه، فوجد في أصدقائه الذين ظهر بين أسمائهم اسم لاسال لأول مرة، الذين جمعوا من التبرعات ما يكفي لدفع نفقات رحلته إلى انجلترا البلد الذي لا يحسن التكلم بلغته، و لا ينتظره فيه أحد.

و هو في الواحدة و الثلاثين من عمره، لم يعد ماركس يملك شروى نقير، و لا من حليف و لا سند، و لا مهنة و لا أخبار لديه عن زوجته و أطفاله الثلاثة، و لا يعرف شيئا عن صديقه انجلز المتواجد في ألمانيا، لكن لماذا انجلترا بالذات؟ لأنها كانت البلد الأوروبي الوحيد الذي لا يقيم العراقيل في وجهه.

كان هذا التنقل المستمر، و الهجرة المتواصلة لماركس عبر هذا البلد و ذاك، حيث كانت ظروف الهجرة هذه مضنية إلى أقصى الحدود، قد أثر على حياته أيما تأثير، خاصة و أن الرجل كان له التزام أسري.

2) ماركس في لندن: وقت قصير للفرح، وقت طويل للحزن

"ليس هناك سوى ترياق واحد للمعاناة العقلية، ذلك هو الألم الجسماني" كارل ماركس

بهذه الكلمات يلخص ماركس كل الآلام التي لازمته في منفاه في لندن، و التي سنقف عليها على امتداد هذه المقالة.

عندما وصل ماركس إلى لندن في غشت 1849 كان قد هوى إلى أسفل درجات الانحطاط المادي، إذ لم يعد معه شروى نقير تقريبا، فآخر ممتلكاته، على قلتها، و حتى كتبه رهنها لتمويل صحيفته في كولونيا، و زوجته و أطفاله الثلاثة سيلتحقون به عن قريب، دون أن يكون لديه ما يكتري لهم به مسكنا لائقا، و انجلز الذي كان بالغ السخاء بمعونته لا يزال عالقا – إلا إذا كان ميتا – في معارك **سواب** الأخيرة، لكن ماركس لا يفكر و لو للحظة في التخلي عن الكتابة و النشاط السياسي، و ما من لحظة أيضا يفكر في البحث عن عمل مأجور، و ستصبح حياته المادية مع وصول جيني و الأبناء إلى لندن عسيرة، و على جيني أن تفعل المعجزات لتهدئة الموردين. و في شهر أكتوبر، و في الوقت، الذي لم يعد لديه من الوسائل لدفع أجرة المسكن و لا لثمن طعام أطفاله، و لا أجرة الطبيب لزوجته التي توشك على الولادة، يعود انجلز للظهور، إذ استطاع مغادرة ألمانيا، تاركا فيها الكثير من رفاقه قتلى في المعارك (الحديث هنا عن ثورة 1848 التي شارك فيها انجلز و انتهت بالهزيمة نتيجة خيانة البورجوازية الألمانية التي ساومت مع النظام و مع الإقطاع).

في بيت حقير يتكدس سبعة أفراد (ماركس و زوجته وأطفاله الثلاثة و الرابع الذي ولد في لندن و عاملة البيت) في غرفة ضيقة، و لا يتمكن الرجل من مواجهة النفقات الضرورية لعائلة بهذا العدد، وكان عدم قدرته على تأمين حياة لائقة لأطفاله يعذبه، فيقترض لشراء الغذاء و الملابس و الأدوية و الكتب، و الديون تتراكم مقترنة بفوائد باهظة، و يتردد الدائنون أكثر فأكثر

على قرع باب الغرفة الحقيرة في شلسي، و كان على ماركس عندئذ اختلاق الأعذار و الذرائع و إرجاء الوعود و دفع عربون، و السعي للاقتراض من انجلز، ومن ناشره، ومن أمه، التي يكتب لها عدة مرات بهذا الشأن، أو من أصدقائه، دون جدوى في غالب الأحيان.

بعد عشرة أشهر فقط من السكن، يعجز ماركس عن سداد الكراء، فتطرد الأسرة من الغرفة الضيقة، التي يسكنها في شلسي، و توضع الأسرة و الأغطية و الملابس و لعب أطفاله، و حتى مهد الصغير غيدو، و الذي لم يتعد شهره السادس و صحته سيئة، تحت الحراسة، ثم تباع على عجل، ليتمكن من الدفع للصيدلي و الخباز و الجزار و الحلاب، فالأطفال في أمس الحاجة إلى الدواء و الخبز واللحم و الحليب أكثر من أي شيء آخر، فيغطي انجلز، الصديق الوفي و الأخ الذي لم تلده له أمه، بل الرفيق الذي لا مثيل له، الديون الأكثر إلحاحا، لتنتقل الأسرة إلى كوخ حقير، في حي حقير، من أسوء الأحياء سمعة بالمدينة، و هو حي سوهو، حيث تنتشر العاهرات و المشردين، و كل أنواع البروليتاريا الرثة، في شارع سيلقبه كاتب سيرة جيني ب "شارع الموت"، و سيكتب ماركس نفسه فيما بعد، أنه في هذا الشارع تحطمت حياته (سنفهم في الآتي من فقرات المقالة لماذا قال ماركس ذلك).

في ماي 1851، سيقام في لندن المعرض العالمي الأول للتقنيات، و مغتنما فرصة تدفق الجمهور على المعرض، يرسل أخ جيني غير الشقيق، الذي أصبح وزيرا في حكومة بسمارك إلى لندن أفضل عملائه، و هو ويلهايم ستير- الذي سيصبح فيما بعد رئيس مصالح بسمارك السرية و هو من رجال الشرطة الصارمين الذي سيطارد ماركس بكراهيته طوال ربع قرن التالي (نحن الآن في بداية الخمسينات). لقد عاش ماركس في لندن كثوري، من أكثر الثوريين ملاحقة في أوربا، فلا غرابة أن يتبعه الجواسيس إلى غاية انجلترا.

لقد جاء الرجل العميل مكلفا بمهمة محددة، و هي اختراق اجتماعات "عصبة الشيوعيين"، و يقدم نفسه كأحد المتعاطفين، و يحبط بمهارة كل إجراءات المراقبة، حتى أنه كان يدعى إلى بيت ماركس في الشقة البائسة بسوهو، حيث لا يتم استقبال إلا المخلصين. لقد كان ماركس يعلم مع ذلك أنه مراقب، و كان يعرف بوجود جواسيس بروسيين في لندن، لكنه ينخدع بستير و يستقبله في بيته كمناضل، فيرسل الجاسوس في تقاريره السرية إلى برلين وصفا مفصلا (ولابد أن يكون إلا مفصلا و دقيقا فذلك هو المطلوب من الجواسيس ألا يترك كل شاذة وفادة عن المراقب (بفتح القاف)) لحياة أسرة ماركس في تلك الفترة، و من سخرية التاريخ و مكره أن هذا الجاسوس سيقدم صورة حقيقية، صادقة و دقيقة عن مستوى البؤس و الواقع المعيشي المزري الذي يعيشه ماركس، فما قدمه من معلومات عن الرجل كانت بمثابة شهادة لشاهد عيان، مخبر يجب أن ينقل المعلومات صحيحة، وهو أيضا، وبالطبع، وصف انتقادي جدا لإرضاء رؤسائه :

"إنه فوضوي جدا في حياته الخاصة و صفيق و مضيف منفر، يعيش حياة بوهيمية، و نادرا ما يغتسل و يبدل ملابسه التحتية، يسكر بسهولة ينام غالبا طول النهار، لكن إذا ما كان لديه عمل ينكب عليه ليلا و نهارا، ليست لديه أوقات محددة للنوم و الاستيقاظ، و غالبا ما يظل ساهرا طوال الليل حتى الصباح، ثم ينام نحو الظهر على كنبة بملابسه الكاملة حتى المساء، دون الالتفات إلى الغدو و الرواح من حوله، و ما من قطعة أثاث في شقته، كل شيء مكسر مغطى بالغبار في فوضى عارمة. في وسط الصالون طاولة كبيرة مغطاة بنوع من السماط، عليها مخطوطات و كتب و صحف و قصاصات قماش ممزقة متبقية من خياطة زوجته، و فناجين شاي مخدوشة و ملاعق قذرة و سكاكين و شوك و شموع و محابر و كؤوس و غلايين و رماد التبغ، كل ذلك متفرق على الطاولة ذاتها" و يضيف المخبر:

"ما أن يدخل المرء بيت ماركس، حتى تهاجم عيناه بذخان الفحم و التبغ كما في قبو، أي أن تعتاد على الظلمة، و تبدأ في تمييز الأشياء عبر الذخان (...) و يدعى الزائر للجلوس، لكن كرسي الأطفال لم يكن قد نظف فيجازف بتوسيخ سرواله به، و كل هذا لا يسبب أي إحراج لماركس و لزوجته". و يختم الجاسوس بأن الرجل يظل خطيرا، و أنه محاط برفاق مستعدين لأي شيء لخدمته، ذاكرا منهم، فريدريك انجلز، الذي يعيش في مانشستر و يأتي كثيرا لزيارة ماركس.

و لأن المصائب عند ماركس تأتي تباعا، فحتى مجلته "الجريدة الرينانية الجديدة"، يتخلى صديق بروكسيل و ناشره في فرنكفورت جوزيف ويدماير المهدد بالاعتقال عن مجلته، و يغادر ألمانيا إلى نيويورك كي يؤسس فيها دورية جديدة، يريد تسميتها "الثورة"، و هذا ما سيضع حدا لتوزيع النسخ الباقية من "الجريدة الرينانية الجديدة"، التي ولدت في فرنكفورت، و هكذا لن يعود لماركس صحيفة يعبر فيها عن نفسه.

كان ماركس يعرف أن منفاه سيستمر وقتا طويلا، فيتكلم في ذلك مطولا مع زوجته جيني، إذ يجب أن تتهيأ المرأة للبقاء في لندن وسط البؤس، في هذا البلد، الذي كل شيء فيه غريب عنهما، مع أربعة أطفال لا يستحقون معيشة الضنك و البؤس هاته، معرضين لخطر أن يلقى أحدهم مصير غيدو، طفله الذي توفي، و يتساءل: ترى هل هي مستعدة ألا تفضل العودة إلى أمها في تريفر مع الأطفال، حيث سيستفيدون من رفاهية بيئة عائلية آمنة، مع أخ وزير؟ هذا ما يطرحه ماركس على زوجته فترفض غاضبة لأنه فكر حتى في هذا الحل، فلم تكن المرأة من النوع من النساء التي تترك الظروف تقهرها و تغلبها، فجيني تلك المرأة الصلدة تقول لماركس، أنه ليس له إلا أن يكتب أكثر و ينشر أكثر و يواصل المعركة للآخر، إذ هي منذئذ معركتها أيضا، و هي مستعدة لها، و لا يجب عليه أن يستسلم، و هي هنا بقربه – و هل يطيق فراق جيني حبيبته و يصبر عليها ؟ - أهو بحاجة إليها؟ إنها لا تطلب أكثر من هذا.

بعد عدة أيام و البرد شديد و الفقر أكثر شدة، يكتب ماركس إلى انجلز و قد بلغ به الأسى حدا يفوق التحمل، أنه لم يعد يستطيع الخروج من بيته لأن معطفه مرهون، و لم يعد قادرا على شراء اللحم للأطفال، لأن الجار لن يعود ليبيع له بالدين، حتى أنه لم يعد يتمكن من إرسال ابنتيه الكبيرتين إلى المدرسة، و لا شراء كتب و لا حتى مهدا و ملابس و أدوية لفرنسسكا، الطفلة الأخيرة المريضة على غرار إدغار الذي بلغ سنته الخامسة، و هي نفس وضعية ابنه السابق غيدو، الذي مات بسبب نفس الظروف. و كثيرا ما سقطت زوجته جيني فريسة للمرض و لا يستطيع اقتناء الدواء لها، و قد كتب ماركس في إحدى هذه المناسبات إلى انجلز يقول:

"لم أكن أستطيع الآن أن أستدعي الطبيب لأني لا أملك ثمن الدواء، لقد كان غذاؤنا في الأيام الثمانية أو العشرة الماضية قاصرا على الخبز و البطاطس، و اليوم أشك في أنني سأستطيع الحصول حتى عليها"

في هذه الأوقات العصيبة، و الزمن هو سنة 1852، لا مجال للكتابة و لا للقراءة، و لا للتفكير، فالمهم فقط هو الحفاظ على بقائه و بقاء أطفاله.

في هذه السنة، في يوم 14 أبريل، تبلغ شدة البؤس و قساوة البرد حدا يودي بحياة ابنته فرانسسكا، و هي في سنة و شهر من عمرها، و تكون بذلك الطفل الثاني الذي يتوفى في هذا الشارع الممقوت، بعد سنة و نصف من وفاة ابنه غيدو، و المحزن جدا، أن ماركس لا يملك من المال ما يمكنه من شراء نعش لها، فيضطر إلى اللجوء إلى كرم جاره الفرنسي.

تقول جيني زوجة ماركس في إحدى ذكرياتها عن فرنسسكا، أنها عندما أتت لهذا العالم لم تحصل على مهد، و حتى و هي تذهب إلى مثواها الأخير تنكر عليها ظروف البؤس حتى نعشا.

و في رسالة التعزية يعبر انجلز عن ألمه لفاقة أسرة ماركس، و للظروف الصحية المؤسفة، التي أفضت إلى موت فرنسسكا، متأسفا لعدم قدرته على فعل المزيد لهم.

و لم يعد ماركس يحتمل هذه الظروف التي تعاكسه و تنغص عليه العيش، فيقع فريسة المرض بصفة جدية لأول مرة، فقد تراكمت عليه الأمراض من كل الأنواع، فأزماته الدملية و الكبدية و آلام الأسنان و التهابات العيون و الرئة تتزايد، و عندما تسوء حاله فجيني من يتكفل بأمور البيت.

و بينما هو في الدرك الأسفل من الفقر، حيث أن أي جنيه في يده هو أمر خارق، يتلقى ماركس مقترحا أثار دهشته، مؤداه، أن يصبح مراسلا في لندن للصحيفة الأمريكية الأولى في الولايات المتحدة الأمريكية، "نيويورك دايلي تريبيون"، الصحيفة الأكثر مبيعا في العالم، فينزل هذا الاقتراح بردا و سلاما على ماركس، و يستهويه بالطبع، فها هو أخيرا سيحصل على دخل منتظم – وظب ماركس حياته من قديم على أن يكون دخله من الصحافة فهو يكره أي عمل مأجور لكن الظروف عاكسته في ذلك – فقد تلقى وعدا أن يتلقى عن كل مقالة من مقالاته الأولى جنيها، ثم جنيهان حتى ثلاثة فيما بعد .

زادت المصائب التي توالت على ماركس تباعا و يشد بعضها في البعض الآخر، و خاصة فقدانه لاثنين من أبنائه خلال بضعة أشهر من صلابة طبعه، فلم يعد ماركس ذلك الشاب المرح، الطموح، المتفائل، الذي كانه في برلين و باريس و بروكسيل.

و في غشت 1852 سيكون العيد في بيت ماركس، و ستفرج كربته، عندما ستنشر نييويورك ديلي تريبيون مقال ماركس الأول و يستلم أول جنيه دخلا له.

بعد عامين من هذا الحدث السعيد، و لأن أحزان ماركس أكثر من أفراحه، ما لبثت أن تتالت عليه الفواجع، ففي نهاية 1854 يكتب ماركس إلى انجلز بأنه سيلجأ إلى "وسائل غير عادية" لدفع المصاريف المرتبطة بولادة جيني، و بالعناية التي تتطلبها حالة ابنه إدغار، التي تسوء أكثر فأكثر، و في 16 يناير 1855 تولد ابنة ماركس الرابعة، و سادسة أطفاله، لكنها رابعة الأحياء عندئذ، لكن فرحة الأسرة لم تكتمل، إذ تصيب ماركس، كما اعتبرها، أسوأ مصيبة في حياته، ففي أبريل من نفس السنة، و بعد أقل من ثلاثة أشهر من ولادة إليانور يموت إدغار ابنه المحبوب بالسل وهو في الثامنة من عمره، فقد كانت له علاقة خاصة بهذا الطفل، الذي راهن على أن تكون علاقته معه كما كانت علاقة أب ماركس مع ابنه كارل، التي كانت أيضا علاقة خاصة، كان كارل دائما يقدرها أشد تقدير، لذلك بموت إدغار أصبح يسير على غير هدى، و يكتب عندئذ لانجلز :

"لقد مررت بشتى النوائب من قبل، لكنني في هذه الساعة فقط، أعلم ما تعني المصيبة الحقيقية، أشعر أنني محطم تماما"

كان ماركس بطبيعته كتوما، و كانت عادة رثاء النفس لديه أقل منها لدى أي شخص آخر في الوجود، بل إنه كان أحيانا يتناول في رسائله لانجلز سوء حظه بتهكم مرير، لعله يخفي عن القارئ العابر حقيقة الظروف البشعة التي كثيرا ما كان يجد نفسه فيها، و لكن عندما مات ابنه إدغار نفذ السهم إلى قلبه رغم كل تحفظه الحديدي، فيكتب إلى صديقه يقول:

"لقد قاسيت جميع ألوان الشقاء، و لكني لم أعرف معنى التعاسة الحقيقي إلا الآن ... و في غمار كل ما تعرضت له من بلاء في هذه الأيام، كان التفكير فيك و في صداقتك، و الأمل في أنه يمكن أن يكون هناك شيء حسن نستطيع أن نحققه في هذه الحياة، و هو ما يشد أزري، و يحول بيني و بين الانهيار".

و بعد عشرة أعوام من وفاة إدغار، تكتب جيني، أنه كان بإمكانهما ربما إنقاذ ابنهما بمغادرة لندن للعيش على شاطئ البحر، فالشعور بالذنب لن يغادرهما أبدا.

لقد هد ماركس توالي الفواجع و تسلسل المصائب، و جعلت الرجل يظهر أكبر من سنه، فقد كان عندئذ في السادسة و الثلاثين من عمره، لكنه يظهر فجأة أكبر من ذلك، فقد ابيضت لحيته، و زيادة على نوبات البواسير لديه، فقد كانت تنتابه آلام حادة بالكبد و يصاب بداء الدماميل، و آلام الأسنان و الالتهابات التنفسية و الروماتيزم و الصداع و احتقان الجفون، وكلها أمراض استوطنت جسمه من جراء سوء التغذية و الفقر المدقع.

و هو على ما هو عليه من هذا الوضع الصحي المتدهور، دون مورد، و قد فقد ابنه الثاني و الأخير، و لا أحد يقرأ ما يكتب، و لم تعد له منظمة سياسية، و يفلت منه كل شيء، و لم تعد له الطاقة للكتابة و لا للتحرك، إضافة إلى كل هذه المتبطات التي تهد العزائم، في كل هذا، يلاحظ بمرارة تراجع الحركة الاشتراكية في البلد الذي يجب أن تكون الأكثر قوة، يعني بريطانيا، بلد الطبقة العاملة بامتياز.

ويفضي بؤس ماركس الشديد به في آخر المطاف، إلى الكتابة من أجل البقاء في كل الصحف التي تقبل مقالاته. و عندما كان غارقا في حزنه و همومه المالية سيؤسس بعض اللاجئين السياسيين الفرنسيين و الألمان و البولونيين مع بعض المناضلين الانجليز في لندن، جمعية دولية عمالية لتأخذ مكان "عصبة الشيوعيين"، التي حلها ماركس منذ ثلاث سنوات، مختبئا عند انجلز في مانشستر فرارا من السجن بسبب الديون التي لم يتخلص منها إلا بإرث سقط عليه من السماء، و كان ذلك آخر ما كان ينتظر من مفاجأة، و هو إرث من خال اسكتلندي لزوجته جيني، فيمنحه ذلك نوعا من تنفس لكربته، و يستعيد قليلا

من البهجة، فيمضي وقتا أطول مع بناته الثلاث اللواتي تبقين له، يلعب معهن لساعات، لقد كان أبا حنونا، لطيفا و متسامحا، و كان يردد دائما : **"على الأبناء القيام بتربية أبويهم"**، كانت بناته يحبونه بجنون، و لم يشعرن قط بثقل سلطته الأبوية.

في سنة 1856، كان الوضع السياسي لا يبعث على التفاؤل و يصاب ماركس بالانهيار من جديد و يتساءل: **"ما الفائدة؟ فالثورة مستحيلة"**.

وهو في مسكنه الحقير، بعيدا عن وطنه، يفقد ثلاثة من أطفاله، في ثلاثة أعوام، و يعتبر نفسه مسؤولا عن ذلك، ينتابه وخز الضمير عن وضع لم يتعمده، و لم يعد له من أمل و لا سبب للكتابة، و لا للعمل و السياسة، فيحث جيني مرة أخرى على تركه و العودة مع الأطفال إلى ألمانيا، لكنها ترفض كما في ظروف سابقة، فكيف تترك حبيب حياتها، وهي تعرف أنها سنده في كل شيء، و لم يبق له إذن إلا انتظار موت ما تبقى من أطفاله، و موت جيني و موته، و هو لا يعلم أن كل شيء سيتغير قريبا بالنسبة إليه.

ففي غضون بضعة أشهر، بين 1856 – 1857، و بينما هو معزول عن كل شيء، يفتقر إلى المال و الطاقة، غارق في الحزن و الفاقة، يتحول مصيره، و تبتسم له الأيام، فالمال يرد عليه، و ظروف معيشته تتبدل، و تصبح الثورة ممكنة، و يجد نفسه في مركز النشاط العالمي، و تصوراته تزدهر و نظريته تتطور، و ستستعيد الحياة بالنسبة إليه معناها وهو في التاسعة و الثلاثين من العمر.

و في 14 أبريل 1857 يظهر من جديد للمرة الأولى منذ أربع سنوات في الحياة الرسمية لليسار و الهجرة، بإلقائه خطابا في المأدبة السنوية لصحيفة الميثاقيين، فيستعيد نهجه لسنوات الشباب و تبتعد المرارة عن قلبه و يتبدد الحزن، و يلقي نصا

رائعا، إذ تكلم عن الثورة الاجتماعية، **"التي ستكون تحريرا لكل طبقة العمال في العالم أجمع، و ستكون أيضا أممية، مثلما هي هيمنة رأس المال و عبودية الأجراء"**.

و هكذا يعود ماركس زعيم ""عصبة الشيوعيين" التي كان قد تم حلها من طرف ماركس و انجلز. و إلى غاية موته، و بعد موته بكثير، لن يتم عمل أي شيء بدونه ضمن أوساط اليسار الثوري العالمي.

لكن سوء الطالع يأبى ألا يفارق الرجل، ففي بداية 1858، ستسوء من جديد حالة كارل جسميا و نفسيا، فالثورة لم تعد في متناول اليد، و أوساط الهجرة الاشتراكية، التي ابتعد عنها لا زالت تعج بالأقاويل و الدسائس، و قد فقد جزءا من أجره في جريدة "نيويورك ديلي تريبيون"، و انجلز مشغول بعمله في مانشستر(العمل الذي قبله عن مضض لأجل مساعدة ماركس ماديا) فلا يأتي ليراه إلا ناذرا، و ما يدفعه له ليس كافيا لتأمين عيش لائق، فيستولي عليه الخوف من عدم القدرة على دفع أجرة منزله (الأحسن من السابق) و من الاضطرار إلى الرجوع إلى سوهو، الحي المنحوس.

2018 - 12 - 01

كارل ماركس، الإنسان، كارل ماركس عقل العالم

- ٤ -

"من المعاناة تولد الحياة"

القولة التي تنطبق على حياة كارل ماركس

IV - سنوات الشباب : إنتاج غزير و بؤس وفير

إن مقولة "من المعاناة تولد الحياة" تنطبق على ماركس أيما انطباق، فسنوات الشباب في لندن كانت فيها حياة ماركس شديدة البؤس، لكن كانت في نفس الوقت السنوات التي أنتج فيها أكثر كتبه و أهمها. لقد كان البؤس يلبسه منذ أن حل في هذه البلاد، لكن الشباب أعطاه القدرة على التحمل، لكن مع التقدم في السن، و كلما مرت الأعوام و السنون يصبح الجسد غير قادر على مراكمة المزيد من الأمراض و الآلام، إذ تزداد علل ماركس، بعضها جرها منذ شبابه فتطورت، و بعضها جديد زاد

من معاناته، أضف إلى ذلك أن الأولاد يكبرون و التكاليف تزيد عبئا، ووسط كل هذا الركام من الأدواء التي ألمت بالجسم، فقد ظل الذهن متوقدا و الدماغ يفرز الأفكار بغزارة، و أنتج أعظم ما كتب في الاقتصاد السياسي، كتابه "راس المال".

1) 1860 – 1864 : السنوات العصيبة

كان لاستمرار حرب الانفصال في الولايات المتحدة الأمريكية نتائج كارثية على كارل ماركس، ففي هذه الفترة ارتفعت أسعار القطن، فوقعت صناعة النسيج في بريطانيا في أزمة خطيرة، و أهم من ذلك عند ماركس، أنها وضعت حدا نهائيا لتعاونه مع جريدة "نيويورك ديلي تريبيون" - بعد أن كانت حلا لماركس في سنوات الخمسينات بالجنهين اللذين كان يتقاضاهما عن كتاباته بها، الذين فرح بهما كارل ماركس في تلك السنوات، عندما تهافتت عليه أنواع البؤس من كل مكان، نظرا لصعوباته المالية، و حرمته من مصدر دخله المهني الوحيد، ليقع من جديد في ضائقة مالية شديدة، إذ لم يعد يعيش إلا من معونات انجلز المالية، في الوقت الذي كانت التكاليف التي عليه تحملها كبيرة جدا، فسن بناته يزداد، و تزداد حاجتهم إلى الدروس الخاصة و الأنشطة الفنية، فقد كان عشق بناته للمسرح كبيرا، و في الشهر التالي بعد كل شهر، يتأسف لأن بناته ليست لديهن الملابس اللائقة بمتابعة دروسهن، و لا يقوم بزيارة المعرض العالمي للصناعة، الذي حصل من أجله على بطاقة صحافية دائمة، و هو يائس إلى حد الشعور بالذعر، هل عليه التنقل مرة أخرى؟ إن الانهيار يترصده من جديد.

كم كان ماركس ينزعج باستمرار بسبب، كما يقول، الحاجة إلى "الدراهم القذرة"، التي لم تكن تترك له سلاما. وفي 18 يونيو يكتب إلى انجلز يطلب منه مرة أخرى بعض الجنيهات معددا احتياجاته في رسالة مؤثرة:

إن فكرة تحميلك بؤسي تؤلمني، و لكن ما العمل؟ فكل يوم تقول لي زوجتي أنها تتمنى أن تكون في القبر مع أطفالنا، و لا أستطيع لومها نظرا لمهانة وضع كهذا، و كما تعلم، فقد ذهبت الخمسين جنيها لسداد ديون و بقي أكثر من النصف ينتظر السداد، من جنيهين للغاز (...) و لن أقول شيئا عن وضع من يعيش في لندن بدون بنس لسبعة أسابيع، و هو ما يحصل لنا غالبا (...) و أنا متأسف بالخصوص من أجل أطفالنا ذوي الحظ العاثر لأنها فترة الأعياد".

و يشرح ماركس لانجلز، أنه إذا لم يجد مالا، فسيضطر إلى إعلان عجزه عن الدفع، و ترك مالك منزلهم يبيع أثاثه و ترك هيلين ديموت عاملة المنزل تبحث عن رب عمل آخر، لأن الأمر أصبح من باب الترف، يجب التخلي عنه، و الانتقال مع جيني و إليانور إلى غرفة مفروشة ب 3 شلنات للأسبوع، و تشغيل لورا و جيني و هما في 18 و 19 سنة من عمرهما كمدبرتي منزل، لكن انجلز يطمئنه، و يغطي تكاليفه، و مرة أخرى يفلح ماركس في عدم تجاوز حدود الغرف المفروشة، أي بيت السكن النموذج، رمز الانحطاط إلى درك البروليتاريا الرثة.

لم تكن سنة 1862 في سوء السنة التي سبقتها، بل كانت أسوأ بالفعل، فقد كان شتاء 1862 – 1863 شديد البرودة بصفة خاصة، و يبقى وضع ماركس المادي على ما هو عليه، مع هذه الظروف الطبيعية القاسية، و لم يبق له من مورد إلا ما يدفعه له انجلز بحساب، حرجا للغاية، و وصل الأمر بماركس إلى التفكير في البحث عن عمل مأجور، فيتقدم لوظيفة في مكتب من مكاتب السكك الحديدية (قاطع تذاكر)، لكن ملابسه الرثة و مظهره المخيف، كان أبعد من أن يترك أثرا طيبا في نفس أي صاحب عمل يطلب عملا مكتبيا، و قد رفض طلبه في النهاية بسبب رداءة خطه غير المقروء (ربما قام ماركس بذلك عمدا، لأن في قرارة نفسه كاره لهذا العمل المأجور) أفشل المشروع، فيشعر بالراحة لذلك، و ستكون هده محاولته الوحيدة بهذا الشأن.

إنه لمن العسير أن يرى المرء كيف كان ماركس و عائلته يستطيعون البقاء إبان هذه السنوات البشعة لولا مساعدة انجلز، و عن قصة ماركس مع هذا المال اللعين يقول انجلز : **"لا أعتقد أن أحدا سبق أن كتب عن النقود و عانى إلى هذا الحد من الافتقار إليها"**.

خلال صيف 1863، تسوء صحة ماركس إلى أقصى حد، فالدمل الواحد يتحول إلى اثنين فثلاثة ... و يكاد ذلك يودي بحياته، تاركا إياه ممتدا على السرير لمدة شهر، وكم يكون الأمر ثقيلا على رجل لا يستطيع أن يكف عن الحركة، و تتعاقب عليه أمراض الجمرة و الشقيقة و الالتهابات الرئوية و الكبدية بوتيرة متسارعة، و مرة أخرى يتوقف عن العمل.

في هذه السنة (1863) تتوفى في تريفر والدة ماركس، و قد كان الأمر محزنا و هو الذي يعيش في المنفى لا يستطيع توديع أمه، لكن موت أم ماركس سيحرر تركة والديه، حيث سيحصل على ما يزيد عن 1000 جنيه، و هذا يعتبر بالنسبة للوضع الذي عليه ماركس حيث ليس في جيبه فلسا واحدا، بمثابة ثروة سقطت من السماء على غير انتظار، إذ أنه سيضمن بها العيش على الأقل لثلاثة أعوام، لكن ماركس الذي لا يعطي قيمة للنقود حتى يفتقدها، و لأن يده كانت "مثقوبة" كما يقول المغاربة، فإنه مرة أخرى و كعادته، يقرر إنفاق الأموال، التي تلقاها دون أن يفكر في المستقبل، و هكذا، و بفضل تركة أمه، تنتقل الأسرة إلى منزل جميل مجاور لمنزلها الحالي في حي راقي ، يسكنه أطباء و محامون، و يهتم كارل بالأساس بدراسة بناته و بدروسهن في البيانو و المسرح.

2 - 1864– 1870: تنتهي الهموم المادية لماركس و يغزر إنتاجه الفكري

كانت سنة 1864 سنة سعيدة لماركس – تلك السعادة التي ما أن تطل حتى تختفي ثانية- فقد توفي أحد أصدقاء ماركس القدامى و هو ويلهايم وولف و يوصي لكارل ب 840 جنيها – و هي ثروة صغيرة- و هكذا يشكل مجموع التركتين (من أمه و صديقه) لأسرة ماركس أكثر من نفقاتها المعتادة آنذاك لمدة خمسة أعوام، فهو الانفراج و الرخاء إذن.

كانت سنة 1864 هذه سنة الإرث، فقد توفي والد انجلز، فيصبح فردريك المالك للمصنع العائلي في مانشستر، و يستطيع زيادة مساعدته لماركس، لكن بصفة محسوبة، ضامنا له 200 جنيها كحد أدنى في السنة.

هكذا، و هو في 46 من عمره، ستصبح الهموم المادية لماركس جزءا من الماضي، فمنذ عام فقط (1863) كان يحدث له أن لا يجد ما يطعم به أسرته، لكنه يستطيع اليوم تقديم شيء من الرفاهية لبناته. لكن الأهم من ذلك، ينوي ماركس التفرغ جديا لكتابه العظيم عن رأس المال، الذي انقطع عنه منذ ما يقرب من أربع سنوات و الذي يأمل به **"أن يوجه للبورجوازية على الصعيد النظري ضربة لن تقوم بعدها أبدا"**، فقد استعاد كل نشاطه، و لم يعد يحسب إلا بالشهور بل بالأسابيع، و يكتب في هذا الشأن:

"كان علي استغلال كل لحظة استطيع فيها العمل على إتمام عملي، الذي من أجله ضحيت بالصحة و السعادة و بالعائلة (...) و أنا أضحك من الناس العمليين و الحكماء المزعومين، فإذا أراد المرء التصرف كالبهيمة سيتمكن بالطبع من إدارة ظهره إلى مآسي البشرية و عدم الاهتمام إلا بالنجاة بجلده، لكنني سأعتبر نفسي غير عملي إذا ما مت قبل أن أتم كتابي"

لكن الرياح ستجري بما لا تشتهيه سفينة ماركس، ذلك أنه ستطرأ أحداث عديدة ستحوله عن هذه المهمة العسيرة، وسيتخذ قرارا بتأجيلها.

ويبدو، وهو في 46 من عمره، أن كل الأبواب تفتح أخيرا أمامه، فتحت تصرفه أداة سياسية عالمية، و هي "الأممية"، التي انغمس فيها أربع سنوات، و يعيش حياة لائقة، و لم تعد تقض عيشه مشكلات آخر الشهر، و هو بصحة جيدة و يسكن منزلا جميلا، لكنه لم يعد يكتب.

بعد أربعة أعوام من الانقطاع، بسبب انغماسه في "الأممية"، وكأنما جاء النشاط السياسي ليغذي نشاطه الفكري، يعكف من جديد على تحرير كتابه العظيم، الذي يقرر نهائيا تسميته "رأس المال"، و لم يعد النشاط السياسي هذه المرة ذريعة للتوقف عن الكتابة. و لم تمنع الكتابة و الاشتغال بالسياسة ماركس من أن يلتمس بعض الترفيه لنفسه و أسرته، بأن يقضي أيام الآحاد دائما و بدون استثناء نزهة لجيني و بناته، أو يروي لهن الحكايات، سواء في المنزل أو أثناء نزهاتهم.

كانت أكثر النصوص التي يحرس انجلز على أن يكملها ماركس، كتاب "رأس المال"، فقد كان يستبد به الخوف و القلق، و هو الذي خبر أدواء ماركس و علله و أوضاعه المادية المزرية، التي قد تعود في أي وقت، فلا يخرج هذا المشروع العظيم إلى النور. لذلك، في سنة 1866، و بإلحاح من انجلز، يقبل ماركس تخصيص وقت أقل للإدارة اليومية لشؤون "الأممية" حتى ينتهي من كتابه العظيم ذاك، لكن كما هو الحال في كل مرة يعتزم التفرغ لهذا العمل العظيم بجدية، تأتي نوبة كبدية أو نوبة برد لتوقفه، لكن ماركس مهووس بالكمال بشكل يكاد يكون مرضيا - و هوالمؤمن بالنسبية- و يسجل عنه لافارغ الذي كان يرافقه كل يوم:

"ما كان له أن يستند قط إلى واقعه، ما لم يكن متأكدا منه تماما التأكد، و ما كان له أن يسمح لنفسه بمعالجة موضوع دون دراسته بعمق، و ما كان ينشر شيئا قبل أن يعدله عدة مرات إلى أن يعثر على الشكل الأنسب، فلم يكن يطيق إعطاء الجمهور دراسة لم تمحص بصورة كافية، و من أشق الأمور عليه إطلاع أحد على مخطوطاته قبل أن يكون قد وضع اللمسات الأخيرة عليها، و كان هذا الشعور قويا لديه حتى أنه كان يفضل – كما قال لي يوما- حرق مخطوطاته على تركها غير مكتملة، أما مع المفكرين الآخرين، فقد كان ماركس على قسوته المعتادة، فقد اعتبر كتاب أوغوست كونت بعد 30 عاما من نشره كتابا رديئا، لم يستفد شيئا من قراءته، غير أنه عندما يقدر مؤلفا يستشهد به، كان ضميره الأدبي مثل صرامة ضميره العلمي"

في الكتابة كان أسلوب ماركس مختلفا حسب الحقول التي يكتب فيها، فهو شديد الغموض عندما يتكلم في الاقتصاد، و شديد الوضوح عندما يتكلم في السياسة أو في الأحداث الراهنة، لكنه يصبح متألقا عندما يعود إلى الفلسفة.

كان أبناء ماركس نقطة ضعفه، فهو شديد الضعف أمام بناته اللواتي تبقين له بعد موت أثين من الأطفال الذكور، فكلما أحس أن جيبه منتفخا يغدق على البنات بلا حدود، و في نهاية يناير 1867، بعدما يغمر ماركس بناته بالهدايا يجد نفسه من جديد غارقا في الديون، و هو الذي قبل ثلاثة سنوات كانت بحوزته ثروة صغيرة من تركة أمه و صديقه و المبلغ السنوي الذي يقدمه له انجلز، التي كان يمكن أن تزيد في سنوات رخائه، لكن النقود تأبى أن تبقى في جيبه، فيطارده تجار حيه و مالك منزله، و تصبح تكاليف الديون التي عليه استدانتها لا تطاق، فيصاب بالدماميل بشكل خطير، و يسر لانجلز في جملة شهيرة بأنه يعتبر الرأسمالية مسؤولة عن أوجاعه:

"آمل أن تتذكر البورجوازية دماملة بقية حياتها".

في سنة 1867، كان سن ماركس 50 سنة، و قد كتب ماركس عشية ميلاده الخمسين هاته:

"**نصف قرن على ظهري و لا أزال عالة**"، و في إحدى المرات تمنى أن يغرق منه قدم في البحر بدلا من أن يستمر في العيش كالنباتات، و في مرة انفجر يائسا فقال، أنه لا يتمنى لأعدى أعدائه أن يصادف ما يصادفه، إذ ظل ثمانية أسابيع و قلبه يتمزق غيظا، لأن ذكاءه و قدراته تتفتتان تحت وطأة التفاهات، و مع ذلك لم يصبح ماركس أبدا "**كلبا حزينا ملعونا**" كما وصف نفسه بهزء ذات مرة. حقا لا يعود انتصار حياة ماركس إلى قدراته البالغة فقط، إذ كان لابد أن ينهار في نضاله بشكل أو بآخر، لولا الصديق الذي وجده في انجلز.

2019 ـ 03 ـ 02

كارل ماركس، الإنسان، كارل ماركس عقل العالم

- ٥ -

V ـ كارل ماركس: نهاية الرحلة، 1870 – 1883

1 – مستشار البروليتاريا المناضلة الذي يتعب و لا يلقي السلاح

كان هذا العقد الأخير من حياة كارل ماركس مليئا بالأحداث العظام، منها ما يفرح قلبه و منها ما يحزنه.

كان شتاء 1869 – 1870 فترة تخللتها آلام جسدية عصفت بجسد ماركس (كان ذلك حاله عند حلول كل شتاء، فقد كان الشتاء عدو ماركس اللدود)، لكنه ولحظه الجميل تخلص من متاعبه المالية الدائمة، فرفيقه انجلز متهيء دائما لنجدته، ففي 30 يونيو 1870 تخلص انجلز أخيرا من ما كان يسميه "عمله الملعون"، و كان قبل ذلك بثلاثة أشهر قد سأل ماركس عما إذا كان يستطيع العيش بقدر من المال قيمته 350 جنيها في السنة، إذ كان انجلز يريد أن يؤمن هذا المبلغ لماركس مدة خمس او ست سنوات، لكن في النهاية، استطاع انجلز إنهاء متاعب ماركس المالية، ليس لمدة خمس أو ست سنوات فحسب، بل إلى ما تبقى له من العمر.

سيكون هذا العقد عقد انحلال **"الجمعية العالمية للعمال"** (الأممية الأولى)، و في الوقت الذي قالوا عنها أنها فشلت و أصبحت ميتة، يقول ماركس عنها أن **"الأممية لم تمت و لكنها تطورت من مرحلة إلى مرحلة أعلى تحقق فيها بالفعل كثير من الاتجاهات الأصلية للأممية، و لسوف يتعرض هذا التطور الثابت إلى كثير من التغيرات، قبل أن يصبح بالإمكان كتابة الفصل الأخير في تاريخه"**.

بتأسيسه ل "الأممية" يكون ماركس قد جمع شمل الحركة العمالية في مختلف البلدان، و عمل بكل جهد على توجيه شتى أشكال الاشتراكية غير البروليتاريا السابقة بكل منوعاتها، من برودون، باكونين، التريدونية الليبرالية الانجليزية، انحرافات لاسال اليمينية في ألمانيا ... نحو طريق النشاط المشترك ، و قد خاض كفاحا عظيما ضد نظريات جميع تلك الفرق و التيارات، وصاغ تكتيكا واحدا لنضال الطبقة العاملة البروليتاري في بلدان مختلفة، و بعد سقوط كومونة باريس سنة 1871 كان ماركس الشخص الوحيد القادر على تقييمها تقييما ثوريا بعمق سديد و صواب بالغ و سطوع لامع و فعالية كبرى، و كتابه "الحرب الأهلية في فرنسا" 1871 هي جوهرة عمله في هذا الصدد.

أحدث الباكونيون انشقاقا داخل "الأممية"، و لم يعد بإمكان هذه الأخيرة أن تعيش في أوروبا، لذلك، و في سنة 1872، بعد انعقاد مؤتمرها في لاهاي، اقترح ماركس أن ينتقل المجلس العام للأممية إلى نيويورك.

لقد أنجزت "الأممية" مهمتها التاريخية، فاسحة المجال لمرحلة في نمو الحركة العمالية في جميع البلدان بشكل أقوى و أشد، مرحلة ستشهد تطور الحركة العمالية، التي ستعرف اتساعا و امتدادا، و تأسيس أحزاب عمالية اشتراكية جماهيرية في دول عديدة، لقد منح ماركس للأممية كل جهده و أعطاها كل مهجته، محاولا أن ينقل أفكاره من النظري إلى الواقعي. إن الأعمال النظرية الجهبذة، التي صاغها ماركس، هي التي بلغت أوجها في هذه المرحلة.

و لأن ماركس كان عليه أن ينظر و يمارس و يعيش حياته كباقي البشر، فقد أنهك صحته أشد الإنهاك، و لم يمنعه ذلك من الاشتغال على الاقتصاد السياسي، الذي واصل وضعه على أسس جديدة، و إتمام كتاب "رأس المال" جامعا عددا ضخما من الوثائق الجديدة حتمت عليه من أجل استعمالها دراسة عدة لغات.

يظهر أن ماركس قد نال مبتغاه و هو في 54 من عمره، ففي الوقت الذي ما زالت فيه أصداء كومونة باريس تملأ أوروبا، فقد طبقت شهرته الآفاق، فلا توجد جغرافيا في العالم لم تسمع بكارل ماركس، لقد اعتبرته الصحف مطلق القدرة، لأنه على رأس المنظمة السياسية الوحيدة المتعددة الجنسيات، أي "الأممية"، حيث أخذت تتأسس أحزاب و جماعات سرية تستشهد به في ألمانيا و فرنسا و بريطانيا و إيطاليا و الولايات المتحدة الأمريكية و روسيا، و نداءه الأخير للأممية، الذي كتبه بعد نهاية الكومونة أعيد نشره من قبل الصحافة الغربية، و يسارع الصحافيون في العالم أجمع لطرح أسئلتهم عليه، و "بيان الحزب الشيوعي" الذي قرئ من طرف آلاف الطلبة و العمال الألمان يوجد قيد الترجمة إلى الفرنسية و الروسية و الإنجليزية على غرار مؤلفه العظيم "رأس المال".

أخيرا لم يعد ماركس تحاصره الهواجس المادية للعيش، فقد أصبح عنده ما يكفي من الدخل (وقد قام رفيقه انجلز بالواجب) لكي يعيش حياة لائقة له و لزوجته و ابنتيه، اللواتي يشكل معهن أسرة شديدة الارتباط، و رغم كل هذا فماركس ليس سعيدا، و ومزاجه غير رائق، فالمرض ينغص عليه أي سعادة و فرح، فقد كان يعاني من شدة الألم في بعض الأحيان، كما أنه لم يشف قط من فقد ثلاثة من أبنائه، و فوق كل ذلك، فهو يخضع للمراقبة و التجسس عليه، باعتباره أخطر رجل على وجه الأرض، و بعبع البسماركية، الذي يخيف، و ينهكه الخصوم سواء من اليمين أو من معسكره نفسه، تحرقه سهام النقد و الافتراءات الموجهة إليه، من صحافة لا تتكلم عنه إلا كأنه شيطان، و أفظع ذلك عنده، شعوره بنقائص عمله و بالصعوبة التي سيلاقيها

في إنهائه، كما أن ماركس حز في نفسه الإنكار الذي تعرض له من الجامعات الألمانية، و التي رغب دائما في الانتماء إليها. من جهة أخرى، يستشعر ماركس أن الرأسمالية يمكن لها أن تحسن مستوى معيشة العمال، إلى الحد الذي يرفضون فيه الشيوعية. و بالفعل فقد كانت أول ضحية سياسية لأحداث 1870 – 1871 هي "الأممية"، حيث نفي العديد من الناجين من مذابح باريس و إجراءات القمع الألمانية و النمساوية و الروسية، و آخرون يريدون الدخول في اللعبة الديموقراطية، و ناذرون هم أولئك اللذين لا يزالون يريدون تغيير المجتمع تغييرا جذريا.

أصبح بيت ماركس في بداية السبعينات يشهد الكثير من الغدو و الرواح، فقد أصبح ملجأ الهاربين من أعضاء كومونة باريس، يجدون فيه العون و النصح، و كانت أولوية ماركس في نهاية 1871 هي العثور على مأوى و عمل للكومونيين، الذين يأتون إلى لندن و هم عرضة لكراهية الجميع، و الواقع أن ماركس بات المرجع الأكبر لآخر الناجين من الثوار.

كان يفترض من ماركس أن يصبح سعيدا في هذه الحقبة من حياته، فأعماله قد خرجت أخيرا من العزلة التي فرضتها عليها اللغة الألمانية، إذ خرجت الترجمة الأولى ل "البيان الشيوعي" بالإنجليزية و الفرنسية، و يعترف لماركس بالإجماع مرشدا فكريا لليسار العالمي، لكن أمراض ماركس تنغص عليه متعة هذه الإنجازات، فهو يشعر بالإرهاق أكثر فأكثر، فقد ثقل و غزت وجهه التجاعيد، و يمشي بصعوبة، إذ يقدر أحد الصحافيين الأمريكيين، كان قد أتى لإجراء مقابلة معه عمره ب 70 سنة، بينما لا يكاد يبلغ الستين، و قد بلغت شهرة ماركس عندئذ حدا جعل بلاط انجلترا يبدي اهتماما به.

كان آخر حدث عام في حياة ماركس هو المبارزة التي كانت له مع باكونين، فقد بدا أن الثورة خمدت في كل مكان، و كان الهجوم على "برنامج غوتا" آخر تدخل عنيف من جانب ماركس في شأن الحزب (الحزب الاشتراكي الديموقراطي)، و لم

يحدث بعد ذلك في حياته أزمات أخرى مشابهة، بل ترك حرا يكرس السنوات الباقية من عمره للدراسات النظرية، و محاولة استعادة صحته المتدهورة دون جدوى.

لم تتغير مشاعر ماركس نحو خصومه الأحياء منهم و الأموات ، إنه ماركس العنيد، و لكن الرجل هد، و أصبح أقل قدرة من الناحية الجسمانية على القيام بتلك الحملات النشطة، التي كان يقوم بها في شبابه و في أواسط العمر، فقد هدم العمل المرهق و البؤس و الفقر قوته في آخر الأمر، لقد كان مجهدا و كثير المرض، و في ذلك كانت مصائب ماركس تلاقي الارتياح من خصومه، فقد كان يحدث أنه كلما مرض ماركس و تعب ارتاح خصومه بل ابتهجوا، و بما أن ماركس كان مقاتلا، و تلك من أبرز صفاته، فقد كان لا يترك طريقا للشفاء و التعافي لم يسلكه، فله المزيد مما يمنحه للبشرية، فقد كان يذهب كل سنة إلى شاطئ البحر في انجلترا، أو إلى إحدى منتجعات المياه المعدنية في ألمانيا أو بوهيميا، حيث يقابل من وقت لآخر أصدقاءه و رفاقه القدامى، الذين كانوا أحيانا يحضرون معهم مؤرخين أو علماء اقتصاد من الشبان اللذين تحدوهم الرغبة في مقابلة الثوري الشهير.

كان المرض شديدا على ماركس أقعده عن إنجاز مشروعه العظيم "رأس المال"، لقد كان يسابق الزمن لعله يترك له من الأوقات ما يجعله ينهي هذا العمل الاقتصادي الجبار، إلا أن الموت كان قد أدركه قبل أن يحقق هذا الحلم، لكن رفيقه الدائم انجلز سيحول ذلك الحلم إلى حقيقة، عندما تولى مهمة إتمام هذا العمل الضخم، مما ترك ماركس من مخطوطات و جمل موزعة بين هذه الصفحة و تلك من المسودات الكثيرة.

كثيرا ما وصف العقد الأخير من حياة ماركس بأنه "موت بطيء"، قد يكون هذا صحيحا، إذا تم النظر إلى الصراعات التي نشبت بعد سقوط كومونة باريس، و التي كالت لصحته ضربات قاصمة، فقد عانى في خريف 1873 كثيرا من رأسه و أصبح

مهددا بالصرع، و جعله مرض الهبوط العقلي المزمن غير قادر على العمل، و حرمه كل ذلك من كل رغبة في الكتابة، لكن بعد أسابيع من العلاج في مانشستر على يد الدكتور غمبرت، الذي كان صديقا لانجلز، وكان ماركس يثق به كل الثقة، كانت هذه الأمراض تختفي، لكن ما تلبث أن تعود مع أخرى غيرها، كألم الكبد، اضطرابات المعدة المزمنة، والإرهاق العصبي الذي كان يسبب له صداعا حادا و أرقا مستمرا ...

لم تكن أمراض ماركس مستعصية على العلاج، بل كان من الممكن أن يستعيد صحته لو أنه كان يمنح لنفسه الراحة و السكينة، اللتين كان يحق له أن ينالهما و هو على مشارف الستين من عمره، بعد ذلك القدر الضخم من العمل الذي قام به في شبابه، و المعاناة التي قاساها حينذاك، و لكنه لم يكن ليحلم بذلك، أراد ذلك أم لم يرده، بل كان بدل ذلك يعاند نفسه، فيندفع بكل حماسته القديمة في الدراسات الضرورية لإتمام عمله العلمي، تلك الدراسات، التي اتسع مداها إلى حد بعيد في تلك الأثناء، و في هذا الصدد يقول انجلز:

"بالنسبة لرجل كان يدرس كل شيء ليكتشف منشأه التاريخي، وشروط تطوره، كانت كل مسألة تؤدي بالطبع إلى مسائل جديدة، و على الأخص، درس ماركس التاريخ القديم و علم الزراعة و الروسية و علاقات ملكية الأرض في امريكا و الجيولوجيا ... لقد كان ماركس يقرأ كل اللغات الجرمانية و اللاتينية الحديثة بسهولة، ثم تعلم بعد ذلك السلافية القديمة و الروسية و الصربية".

لم يكن كل هذا يستغرق من ماركس سوى نصف وقته، ذلك أنه على الرغم من اعتزاله الحياة العامة، كان لا يزال نشيطا في حركات الطبقة العاملة الأوروبية و الأمريكية، فقد كان يراسل تقريبا جميع قادة الطبقة العاملة في البلدان المختلفة، و كان

هؤلاء يأتونه كلما سنحت الفرصة، ليستوضحوا رأيه في المسائل الهامة، إنه مرجع زمانه الذي لا يمكن تخطيه، لقد أصبح أكثر فأكثر **مستشار البروليتاريا المناضلة**.

كان العمل القاسي فوق ذلك، يحدث أثره على بنية جسمية كانت في الأساس كأنها قدت من حديد، و قد كان جادا كل الجد، عندما قال أن عدم القدرة على العمل هو حكم بالإعدام على أي كائن إنساني. و في إحدى المرات عندما وقع صريع المرض لأسابيع عدة، كتب إلى انجلز يقول:

"على الرغم من أنني لم أكن أستطيع العمل فقد قرأت كتابا في علم وظائف الأعضاء لكارنيتر و كتابا في تشريح المخ و الجهاز العصبي لشلايدن".

و لم ينس ماركس أبدا في غمرة عطشه البالغ إلى المعرفة العلمية، الكلمات التي قالها مرة عندما كان شابا: **"على الكاتب بالتأكيد أن يستحصل نقودا لكي يستطيع العيش و الكتابة، و لكنه لا يجب أن يعيش و يكتب كي يكسب نقودا"**.

كان مرض مزمن واحد من شأنه أن يؤثر على الصحة العقلية و النفسية للمرء، فكيف الأمر و قد اجتمعت عند ماركس من الأمراض ما تفرق على الناس، لكن ماركس المقاتل و العنيد قاوم لكي لا ينتهي إلى هذا المصير، فهو العبقري في كل شيء، عرف كيف يحارب المرض و البؤس و الإملاق بما توفر له من إرادة أسطورية، فلم يجد إلا الأدب معالجا و مهدئا و مسكنا لآلامه و جراحاته، لقد كان ماركس يقصد الراحة العقلية في الأدب، فظل الأدب عزاءا كبيرا له طيلة حياته، و قد كان يملك معرفة واسعة في هذا المجال دون أن يفخر بذلك أبدا، إنه يكره الإنسان ذو البعد الواحد.

و كما أن العمل العلمي الذي قام به ماركس كان مرآة لحقبة كاملة، كذلك كان من يفضلهم ماركس من الأدباء، هم أولئك اللذين كانت أعمالهم مرآة للحقب التي عاشوها، من أمثال أخيل و هومروس و دانتي و شيكسبير و سرفانتيس و غوته، و كان يتذوق كثيرا الأدب الكلاسيكي، و كانت له معرفة كبيرة بالأدب الألماني، و كان غوتة و هينه هما المفضلان لديه من بين الكتاب الألمان المحدثين، و من الكتاب الفرنسيين كان يقدر ديدرو و بالزاك و رائعته "الكوميديا الإنسانية"، و لشدة حبه لبالزاك فقد كان من خططه بعد الانتهاء من عمله العظيم كتابه "راس المال" تاليف دراسة عن بلزاك، لكن مثل الكثير من خططه و ما اكثرها لم يسعفه العمر ليقوم بتحقيقها. و بعد أن أصبح ماركس مقيما في لندن، فقد احتل الأدب الانجليزي المكانة الأولى لديه، و صار شكسبير يستحوذ على جل اهتمامه، بل كانت العائلة كلها تمارس نوعا من العبادة لشكسبير، فبناته يحفظن أغلب نصوص شيكسبير، بل و يمثلنها.

على العموم تجمع كتب النقد الأدبي بالغرب – ناهيك عن الشرق- على أن حب كارل ماركس للفنون و الآداب كان عظيما، و أن قلبه ظل يخفق بهذا الحب طيلة حياته، و لولا انشغاله بدراسة الفلسفة و السياسة و الاقتصاد لكان قد أولى الإبداع الأدبي و الممارسة النقدية الجانب الأكبر من اهتمامه. قرأ ماركس كل أعمال شيكسبير عدة مرات إلى أن ألف شخصياتها المسرحية، لدرجة أنه كان يستشهد بها ليلقي الضوء على بعض نظرياته في علم الاقتصاد، و يشتمل المجلد الأول من "راس المال على إشارات كثيرة إلى الآداب العالمية مثل "دون كيشوت" لسرفانتيس و " روميو و جولييت" و "هنري الرابع" (الجزء الأول) لشيكسبير و "كانديد" لفولتير و " المدينة الفاضلة" لتوماس مور و "الكوميديا الإلاهية" لدانتي ... و بسبب العناية الشديدة بالفنون و الآداب، التي ضمنها ماركس في هذا المجلد، فقد أصبح محط أنظار كثير من النقاد و الدارسين، اللذين أقبلوا عليه من أجل استخلاص نظرية ماركسية في النقد الأدبي، و هكذا يتبين أن الآداب و الفنون لم تكن فقط علاجا نفسيا

لماركس، بل هي أكبر من ذلك، و معروف أيضا عن ماركس أنه يمتلك خيالا شعريا لا مثيل لثرائه، فأول أعماله الأدبية كانت شعرا.

كان ماركس كذلك يجدد نشاطه العقلي على مستوى آخر مختلف تماما و هو الرياضيات، فقد كان يلجأ خاصة في أوقات القلق العقلي و المعاناة إلى العزاء في الرياضيات، التي كان لها تأثير مهدئ عليه.

كان شعار ماركس **"العمل من أجل العالم"**، و كان يقول أن من ييسر له حسن حظه أن يكرس نفسه للبحث العلمي، يجب أن يضع نفسه في خدمة الإنسانية، و قد كان موقفه الفكري هذا، هو الذي جعل الدم ينبض قويا في عروقه، و النخاع حيا في عظامه.

في محيط عائلته و بين أصدقائه كان ماركس ذلك الرجل الرقيق الودود، الذي تنطلق ضحكاته بسهولة، و كان أيضا ذلك الرجل الذي يدهش من يقرأه و من يستمع إليه، فهو يستطيع بكل سهولة الانتقال من الروح المتقدة من توتر الغضب، إلى التأمل الفلسفي الهادئ العميق، دون أن يبذل في ذلك أي مجهود، كما قال عنه صديقه هايدمان في حديث بينه و بين ماركس.

وصف لافارغ ماركس في السبعينات وصفا رائعا، عندما قال أن صهره لابد أن يكون ذا بنية متينة، لكي يستطيع الصمود في وجه نمط غير معتاد من الحياة، و يقوم بنشاطات فكرية مرهقة، و يكاد لافارغ ينطق: أي رجل هذا الذي قد من حديد.

اكتسب ماركس عادة لازمته ما تبقى من عمره، فعلى الرغم من أنه لم يكن يأوي إلى الفراش إلا في ساعة متأخرة جدا، إلا أنه كان دائما يستفيق صباح اليوم التالي بين الثامنة و التاسعة صباحا، فيشرب قهوته السوداء و يقرأ الصحف، لينسحب بعدها

إلى غرفة مكتبه، و يظل هناك حتى منتصف الليل و أبعد من ذلك، إنه يسارع الزمن و يطارد الوقت و يترجاه أن يمهله ما يكفي لإتمام العمل الذي يشغله أيما إشغال، كتاب رأس المال"، و لا يخرج ماركس إلا لتناول وجبات طعامه، أو ليتمشى في الأمسيات الجميلة عبر هامبستيد هيث (مكان مخضر جميل في لندن)، و كان يستلقي في العصر على كنبة لمدة ساعة أو ساعتين، يبتغي بذلك بعض الراحة لمواصلة العمل، كان العمل قد أصبح شهوة جامحة استبدت به، إلى حد أصبح معه كثيرا ما ينسى وجبات طعامه، لقد كانت شهوة الكتابة عنده تفوق شهوة الطعام، و بذلك كان لابد لمعدته أن تعاني من جراء ذلك، و من جراء نشاطه الفكري الفائق، لقد كان ماركس رجلا غير أكول و يعاني من فقدان الشهية، أضف إلى ذلك أنه كان كثير التدخين، و يستهلك الكثير من أعواد الثقاب، و لقد اعتاد أن يقول ضاحكا أن كتابه "رأس المال" لن يدر عليه من المال لتعويض ما أنفقه من السيجارات التي دخنها خلال كتابته له، و كان عليه خلال سنوات الفقر الطويلة أن يذخن أنواعا رديئة، و نتيجة لذلك، فقد أصاب التدخين صحته بالضرر الكبير، و قد حظر عليه الطبيب التدخين مرارا لكن دون جدوى. كان التمرين البدني الوحيد الذي يمارسه ماركس هو المشي ، إذ كان يستطيع المشي أو صعود التلال لساعات، و هو يتحدث و يذخن دون أن يشعر بأي تعب، و في حجرته كان يعمل ماشيا لا يجلس إلا للحظات قصيرة كي يكتب ما فكر فيه في دماغه، بينما كان يذهب و يجيئ في الغرفة، و حتى هو يتحدث كان يحب المشي ، متوقفا من وقت لآخر عندما تحتدم المناقشة أو تكتسي المحادثة أهمية، و في وسط كل هذا كانت جيني الرفيقة المحبوبة، التي جعلت حياة ماركس البئيسة و المؤلمة متقبلة و مهضومة و مقدور على تجاوزها، لقد كان حقا وراء رجل عظيم اسمه ماركس، امرأة عظيمة اسمها جيني، إنها جيني الطيبة، التي جمعت كل الصفات الجميلة شكلا و مضمونا، و لم يكن ارتباط ماركس بجيني بمحض الصدفة، بل كان عن سابق إصرار و ترصد، فحس ماركس الذي لا يخطئ أعلمه بمعدنها الثمين و النادر، إنها جيني الرائعة، **"لقد تمتع عدد كبير من عمال كل**

البلدان بضيافتها الودية و أنا مقتنع أن ما من أحد منهم خطر على باله قط ،أن تلك التي كانت تستقبلهم بهذه الحفاوة و البساطة تنحدر عن طريق أمها من عائلة أرستقراطية و أن أخاها كان وزيرا لملك بروسيا" هكذا تكلم انجلز عن جيني.

2 - عقل العالم يتوقف عن التفكير و يرحل إلى الأبد

كان زواج ماركس و جيني زواجا وجدانيا، و هذا الزواج الوجداني هو الذي أبقى على حياة ماركس التي كانت زاخرة بالبؤس و الألم و المحن، و هو القائل **"هكذا يكون الحب عندما يكون متحررا من جميع عناصره الحيوانية و الإكراه المكشوف و المقنع، و يتحول في لحظة من الاتحاد الروحي المتحقق بفضل المساواة التامة بين الرجل و المرأة آنذاك فقط تولد أسس شكل جديد هو أسمى أشكال الزواج الوجداني"** .

لقد خاض ماركس معركته الأخيرة مع الحياة، و هو غير معضد بساعده الأيمن جيني، و قد زادت صحته اعتلالا عندما غادرته في دجنبر 1881، و لم يستمر بعدها إلا سنتين، فقد حزن عليها حزنا شديدا و زهد في الحياة من بعدها، لدرجة أن انجلز قال أن ماركس توفي و هو حي بوفاتها، فقد زادت صحته اعتلالا عندما غادرته رفيقته، و لم يستمر بعدها، فبعد سنتين سيجده رفيقه انجلز على كرسيه المعتاد يغط في نوم عميق إلى الأبد.

ففي نونبر 1881 يزداد مرض زوجته جيني خطورة، و يكشف الفحص عن سرطان في الكبد، و ماركس أيضا مريض جدا، حتى أنه لا يستطيع إلا مرة واحدة القيام من سريره للذهاب إلى الغرفة المجاورة، حيث توجد زوجته، و يكتب بول لافارغ قائلا:

"كان مستحيلا عليه أثناء مرض زوجته الأخير الاهتمام بأعماله العلمية المعتادة، و لم يكن يتمكن من الخروج من الحالة المؤلمة، التي كانت تسببها له عذابات رفيقته، إلا بالاستغراق بالرياضيات، و في فترة العذاب النفسي هذه كتب

مؤلفا حول: احتساب التفاضل و التكامل"، و يخطف الموت جيني من بين يدي ماركس في 2 دجنبر بحضور ماركس و بناته الثلاث و صهريه، اللذين عادا من باريس للسهر عليها.

إنها تموت، كما ينقل ذلك لا فارغ، شيوعية و مادية كما كانت و عاشت دائما، فلم يكن الموت يخيفها، و عندما شعرت أن النهاية تقترب صرحت **"كارل لقد تحطمت قواي"**، لم يستطع ماركس لشدة مرضه حضور مراسم دفن حبيبته جيني في مقبرة هايغات، و هي مراسم دفن أخرى غاب عنها بعد مراسم أخيه و أبيه و حميه و أمه، فقط بعض الأصدقاء الحميمين يشيعون جيني إلى المقبرة، حيث يلقي انجلز كلمة، و سيكتب لافارغ : **"لم يكن لدى أحد أكثر مما عندها من شعور بالمساواة مع أنها ولدت و نشأت في عائلة أرستقراطيين ألمان، إذ لم تكن الفوارق و التصنيفات موجودة لديها، و كانت تستقبل في منزلها و على مائدتها العمال بثياب العمل بأدب و حفاوة و كأنهم كانوا أمراء ... لقد تركت كل شيء لتتبع كارلها، و لم تندم قط ، و حتى في أيام شدة الفاقة لم تندم على ما فعلته"**.

لقد كان ماركس يكره الجنازات و لا يحضرها، و هذا يتمشى مع طبع ماركس الذي يحب الحياة و لا يشغل باله بنقيضها، و قد كانت إلى جانبه كل الظروف لكي لا يحضرها.

لقد جسدت جيني المبادئ و الالتزام في أجلى صورها، و تلك مبادئ الشيوعيين، فقد كانت جيني شيوعية حتى النخاع، ليس لأن حبيبها ماركس هو كذلك، بل لأنها كانت مقتنعة كل الاقتناع بأفكاره و فلسفته و شيوعيته.

لن تتوقف أحزان ماركس بفقدان جيني عن هذا الحد، فبعد سنتين من فقدان امرأة عزيزة على قلبه يفقد امرأة أخرى غالية عليه، ففي سنة 1883 تموت جيني ابنة ماركس الكبرى ، و هي في 38 سنة من عمرها تاركة خمسة أطفال، و في 20 يناير

يعود انجلز من باريس بعد أن حضر مراسم دفن ابنة ماركس- و ها هو هذا "الشقي" لا يستطيع مرة أخرى تشييع محبوبته جيني الابنة – ليبقى إلى جانب صديقه و رفيقه حتى النهاية، و في 14 مارس يقضي ماركس نحبه متأثرا بمرض السل على مقعده بحضور ابنته إليانور. لقد التقيا منذ أربعين عاما، و ما من يوم مضى منذئذ كان واحد منهما دون الآخر، و دفن ماركس إلى جانب زوجته في مقبرة هايغات في لندن بعيدا عن بلده ألمانيا، التي قضى فيها أقل مما قضاه تنقلا بين العواصم الأوربية، حيث سيرقد رفاته، و سيودع العالم أفضل ما أنتجته البشرية من الناس، و لم يسر في جنازته سوى 11 شخصا ، ابنتاه إليانور و لورا و صهراه بول لافارغ الخارج لتوه من السجن، و شارل لونغيه زوج جيني المتوفاة، و هيلين ديموت عاملة المنزل، و ستة من رفاقه المخلصين منهم انجلز، الذي يلقي كلمة تأبين مؤثرة و بليغة، عبارة عن نص طويل كتب بعد إمعان تفكير، لخص فيه بشكل مكثف و عميق ماركس الإنسان، ماركس عقل العالم :

"في 14 مارس، و على الساعة الثالثة إلا ربع ظهرا توقف أعظم المفكرين عن التفكير، فقد ترك وحيدا لدقيقتين بالكاد، وحينما عدنا وجدناه جالسا في كرسيه نائما في هدوء و لكن إلى الأبد. إنها خسارة لا تقاس ضربت كل من الطبقة العاملة المناضلة في أوروبا و أمريكا و علم التاريخ بوفاة هذا الرجل، إن الثغرة التي نجمت عن رحيل هذه الروح العظيمة ستبرز بجلاء قريبا.

فمثلما اكتشف داروين قانون تطور الطبيعة العضوية، اكتشف قانون التطور البشري : الحقيقة البسيطة التي تخفيها هيمنة الإيديولوجيا و هي أن الإنسان يجب أولا أن يأكل و يشرب و يجد المأوى و الملبس قبل أن يصبح في استطاعته الاهتمام بالسياسة و العلم و الفن و الدين... و بالتالي فإن إنتاج الوسائل المادية الضرورية للعيش، و من تم درجة التطور الاقتصادي المحققة من طرف شعب ما أو في حقبة ما، تشكل الأساس الذي تقوم عليه مؤسسات الدولة و المفاهيم

الشرعية و الفن، و حتى الأفكار حول الدين التي يختص بها هذا الشعب أو ذاك، و على ضوئها يجب أن تفسر و ليس العكس كما هو الحال.

و لكن ليس هذا كل ما في الأمر، فقد اكتشف ماركس أيضا القانون الخاص بالحركة، الذي يحكم نمط الإنتاج الرأسمالي لعصرنا، و المجتمع البورجوازي الذي خلقه هذا النمط من الإنتاج. إن اكتشاف فائض القيمة سلط الضوء فجأة على المشكلة، محاولا حل ما عجزت عن حله جميع البحوثات السابقة من لدن الاقتصاديين البورجوازيين، و كذلك النقاد الاشتراكيين.

إن هيج الاكتشافين لأمر كاف في حياة شخص، و سيكون سعيدا ذلك الذي يتسنى له تحقيق و ل إحدى هذين الاكتشافين.

علاوة على ذلك، فإنه، و في كل حقل بحث فيه ماركس – و لئن بحث في حقول عديدة و لم يكن ذلك بسطحية في أي منها- حتى في حقل الرياضيات قام ماركس باكتشافات مستقلة.

هكذا كا ن ماركس رجل علم، إلا أن ذلك لم يكن يمثل و لو نصف هذا الرجل. لقد كان العلم بالنسبة لماركس، حركية – دينامية تاريخية و قوة ثورية. و مهما كان سروره عظيما بأي اكتشاف جديد في العلوم النظرية، و لئن كانت تطبيقاتها مستحيلة البلوغ، فإنه كان يعيش سرورا من نوع آخر حين يشمل الاكتشاف الجديد تغييرا ثوريا مباشرا في الصناعة، و في التطور التاريخي عموما، فعلى سبيل المثال كان متابعا عن قرب لتطور الاكتشافات المحققة في مجال الكهرباء، و آخرها تلك لمارسيل ديبريز. كان ماركس قبل كل شيء ثوريا، و كانت مهمته الأولى في الحياة المساهمة بطريقة أو بأخرى في

الإطاحة بالمجتمع الرأسمالي، و بمؤسسات الدولة التي جلبها معه، و كذلك المساهمة في تحرير البروليتاريا الحديثة، الذي كان أول من جعلها تعي بموقعها و حاجاتها، و تعي بشروط تحررها. لقد كان الكفاح أمرا أساسيا بالنسبة له، فكافح بحب و عزم و نجاح لا ينافسه فيهم إلا قليلون، و كان عمله في "الجريدة الرينانية الأولى" 1882 و في "إلى الأمام" الباريسية 1844، و في جريدة "البروكسالي" الألمانية 1847، و في "الرينانية الجديدة" 1848 – 1849. و في " نيويورك تريبيون" 1852 – 1862، و بالإضافة إلى ذلك، إشرافه على نشريات نضالية و عمله في منظمات في باريس و بروكسيل و لندن، و أخير توج كل ذلك بتكوينه "الجمعية العالمية للعمال"، كان ذلك إنجازا بإمكان محققه أن يفخر به حتى و لو لم ينجز شيئا غيره.

و كنتيجة لذلك، كان ماركس أفضل المكروهين و أكثر المشهرين بهم في عصره، فقامت حكومات مطلقة و جمهورية على حد سواء بترحيله عن أراضيها، و تنافس البورجوازيون من المحافظين أو من أقصى الديموقراطيين بالتشهير و التلب لشخصه. لقد أزاحوا ماركس كما تزاح خيوط العنكبوت، لكن لم يعرك ماركس اهتماما لذلك، و لم يرد إلا عندما دعته الضرورة إلى الرد. و مات محبوبا ممجدا و نعته الملايين من العمال الثوريين من مناجم سيبيريا إلى كاليفورنا و في كاغة أنحاء أوروبا و أمريكا.

و لمن المهم القول أنه برغم خصومه العديدين، فبالكاد كان له عدو شخصي واحد.

سيخلد إسمه على مر العصور و كذلك أعماله "

هكذا أبن انجلز رفيقه ماركس، هذا التأبين الذي يعكس تلك الرفاقية التي لم يجد بمثلها التاريخ إلا ناذرا، هنا في لندن سينتهي ذلك الرجل الذي خاض صراعا مريرا مستمرا مع العالم، العالم الرسمي طبعا. لم تطرد أمة في التاريخ أعظم مفكريها خارج حياتها الوطنية، بهذا القدر، و طيلة تلك المدة، كما فعلت ألمانيا بماركس، و كانت الأحزاب فيها تفتري عليه بنفس القدر، و حيث كان قوامه العملاقي يبدو منتصبا عبر السحب المختلفة حوله، كان الصمت الخبيث الحقود و المتعمد يفعل فعله المخزي، لقد مات الرجل الذي ثور العالم، متمتعا بكل الاحترام و الإعجاب و التقدير، و لم يضره في شيء كثرة الخصوم، فالفكرة التي حملها في عقله كانت صحيحة، و القضية التي رعاها في قلبه كانت نبيلة، و هذا ما يحفظه له التاريخ، و هو وحده كافي ليسجل له الاعتراف على مر العصور و الحقب.

ستتذكر الأجيال القادمة كارل ماركس المنبوذ، الذي و هو يبكي أطفاله الموتى في بؤسه اللندني، قد حلم بإنسانية أفضل، و سيرجعون صوب عقل العالم و رسالته الرئيسية: **يستحق الإنسان أن يكون محط أمل**، مع كل ربيع تتجدد فيه الحياة، حياة الشعوب.

يقول لينين:

"إن مذهب ماركس لكلي الجبروت، لأنه صحيح، و متناسق و كامل، و يعطي الناس مفهوما منسجما عن العالم، لا يتفق مع أي ضرب من الأوهام و مع أية رجعية، و مع أي دفاع عن الطغيان البورجوازي، و هو الوريث الشرعي لخير ما أبدعته الإنسانية في القرن 19: الفلسفة الألمانية، الاقتصاد السياسي الانجليزي، و الاشتراكية الفرنسية".

خلاصة

إن من يتتبع حياة ماركس يوما بيوم على امتداد السنوات التي عاشها، فهو لابد متسائلا متعجبا، أي رجل هذا الرجل، أي إنسان هذا الإنسان، أي عقل هذا العقل، لقد كان أكثر من نصف حياة ماركس بؤس و فقر و آلام و أمراض و حزن و مآسي و إحباط ، و وسط هذا الركام و الكم من المصائب، استطاع الرجل أن ينجز هذه الأعمال العظيمة، في وسط كل هذه العواصف التي عاشها، لم يرتعش القلم أبدا بين أنامله، وسط هذه الأمواج العاتية، لم يمس عقله أي لوثة، هكذا الشيوعيون الحقيقيون دائما متفائلون، و إيمانهم شديد بأن البشرية لابد أن تجد يوما طريق سعادتها، إنه التفاؤل الثوري الدائم.

إن حياة كارل ماركس درس لكل الثوريين، لكل الشيوعيين، التي يجب أن يتعلموا منها، و تكون نبراسهم الذي ينير طريقهم للنضال. في حياة ماركس نجد كل تلك المواصفات النضالية الثورية، التي يجب أن يتحلى بها الماركسيون – اللينينيون و الشيوعيون الحقيقيون، فلنتعلم من حياة ماركس، و لنكن ثوريين!

14 ـ 03 ـ 2019

كانت هذه هي الحلقة الخامسة والأخيرة من هذه السلسلة،

والتي نشرت خلال الذكرى الستة وثلاثون بعد المئة على

وفاة معلم وقائد حركة البروليتاريا الثورية كارل ماركس

الملحق

صدر في سنة 2011 كتاب بعنوان:

LOVE and CAPITAL, KARL AND JENNY MARX

AND THE BIRTH OF REVOLUTION

(الحب والرأسمال، كارل وجيني وميلاد ثورة)

للكاتبة: **Mary Gabriel**

نظرا لأهمية هذا الكتاب، الذي حظي بجوائز عالمية، و نظرا للقيمة المعرفية للكتاب، و ما تضمنه من معطيات جديدة حول حياة كارل ماركس العائلية و النضالية، و نظرا لكونه قد أماط اللثام عن جانب حميمي في حياة ماركس، يخص علاقته بزوجته و بناته الثلاث، و لكون الكاتبة قد قضت ثماني سنوات من البحث و التنقيب في حياة ماركس و أسرته، و نظرا لما قد يقدمه من إفادة للمناضلين و القراء على حد سواء، فقد ارتأى موقع "الشرارة" أن ينشر استجوابا للكاتبة (ماري غابرييل) قام به الصحافي دفيد بيستيو David Pestieau سنة 2017، و نشر على موقع المجلة الإلكترونية LAVA و منه قمنا بترجمة نص الاستجواب عن الفرنسية، من أجل تعميم الفائدة، و ذلك بمناسبة الذكرى 201 على ولادة كارل ماركس في 5 ماي 1818.

الحب و رأس المال، الأمس و اليوم

(ماري غابرييل)

مقابلة أجراها الصحافي ديفيد بيستيو مع ماري غابرييل

(نص المقابلة)

قضت ماري غابرييل ثماني سنوات مع كارل ماركس و أسرته، و تقول "لم يكن يتحدث بالضرورة إلى جيله، في نواحي كثيرة، كان يتحدث عن عصرنا"

بعد مرور 150 سنة من صدور "رأس المال"، مقابلة مع الكاتبة ماري غابرييل.

بعد 150 سنة، نبش لرسائل غير منشورة، و السعي لاكتشاف الدوافع العميقة، اختيارات حياته، سياق مواقفه، باختصار، لمحاولة اكتشاف الرجل الذي يقف وراء العمل، و وجدت ماركس، و لكن كذلك وجدت زوجته جيني، و بناته: جيني، لورا و إليانور، و بالطبع فردريك انجلز، لقد أصبح الحب و "رأس المال": كارل و جيني، ماركس وولادة ثورة، الكتاب الأكثر مبيعا و الذي صدر سنة 2011.

دفيد بيستيو :

طردت فرنسا كارل ماركس بسبب نشاطه السياسي و عمله في صحيفة معارضة للإمبراطورية الألمانية، و استقر في بروكسيل في فبراير 1845، و تؤكدين أن قصة ماركس، المفكر السياسي الذي نعرفه تبدأ في بلجيكا ؟

ماري غابرييل :

بالضبط، في نونبر 1847، أي قبل 170 سنة تقريبا، غادر ماركس و بعض زملائه، بمن فيهم فردريك انجلز، أوستند إلى لندن، حيث ذهب ليحضر الاجتماع الأول ل "عصبة الشيوعيين"، كانت هذه العصبة التي تشكلت قبل بضعة أشهر، أول تنظيم بروليتاري، الذي انخرط فيه ماركس. في آخر اللقاء، بعد أسبوع بالكاد من وصوله إلى لندن طلب منه أن يكتب ما سيصبح "بيان الحزب الشيوعي".

حاول الكثيرون قبل ماركس، لكن لا أحد منهم جلب الرضى ، لذلك تحولت العصبة نحو ماركس و انجلز، و قالت لهما: "خذوا تلك الملاحظات، التي توجد عندنا، و انظروا إذا كان بإمكانكم استخلاص شيء منها".

حسنا، ترك انجلز ماركس بمفرده في بروكسيل، إذن، جلس ماركس على طاولة في غرفة الطعام، و بمساعدة زوجته جيني عمل لبضعة اشهر لإخراج النص الأكثر ثورية في القرن 19، "بيان الحزب الشيوعي"، لذلك يمكننا القول أن كل شيء بدأ في بروكسيل.

دفيد بيستيو :

هذا إذن، منذ 170 سنة، لا يمكن للمرء أن يكتب تاريخ الحركة العمالية في القرن 20، دون الرجوع إلى ماركس، علاوة على ذلك، فقد أثر في جميع العلوم الإنسانية، من الاقتصاد إلى علم الاجتماع و الفلسفة، و أكثر من ذلك، و مع ذلك، يقول البعض أن أفكار ماركس لم تعد صالحة اليوم، أليس كذلك؟

أعتقد أن مراجعة البيان ستظهر أن هذا غير صحيح على الإطلاق، فما يمكنه أن يقوله لنا هو أمر حيوي، و يمكن للجميع أن يتعلم منه شيئا.

ماري غابرييل:

يقرأ بيان ماركس، كمقدمة لقضية قضائية، ربما تلميحا للمحامي الذي كان يمكن أن يكونه، إنه يبدأ بنبرة ميلودرامية "شبح يطارد أوروبا، شبح الشيوعية"، ثم يتجاوز هذه "الحكاية" بوصفه للشيوعية و النظام الفاسد الذي يأمل أن تحل محله.

في تركيبه لأفكار المثقفين و الاقتصاديين الآخرين، قبل أن يصنعها بنفسه، وصف ماركس الجرائم التي ارتكبتها البورجوازية، و التي كما يقول **"لم تترك أي صلة بين الإنسان و الإنسان إلا المصلحة الباردة و المتطلبات الصعبة ب"الدفع النقدي"**، يقول أن النظام قد حول مهنا تقليدية محترمة (الأطباء و المحامون و الكهنة و الشعراء و العلماء) و العلاقات الأسرية [...] إلى مجرد علاقات نقدية".

وصف ماركس اضطرابات (زوابع) عالم يسيطر عليه رأس المال، بسبب حاجته إلى إحداث ثورة مستمرة في الإنتاج، و تحقيق الربح، الأمر الذي بدوره يتطلب أسواقا جديدة في جميع أنحاء العالم، "التي عليها أن تنغرس في كل مكان، و استغلالها في كل مكان و ربط علاقات في كل مكان".

لقد زود هذا النظام التجاري المنتجين عبر المحيطات بالمواد الخام من البلدان البعيدة، لكي تباع هذه المنتجات إلى مستهلكين، على بعد من السكة الحديدية و السفينة، لقد انهارت الصناعات الوطنية القديمة، تماما مثل الحضارات القديمة، و استوعبت النظام الصناعي الجديد، يقول ماركس **"باختصار "فإن البورجوازية "تضع عالما على صورتها"**، و يوضح، أن هذا المجتمع زرع بذور تدميره، مثل **ساحر لم يعد يعرف كيف يسيطر على القوى الجهنمية التي استحضرها"**.

تتفاقم الأزمات التجارية بسبب فائض الإنتاج، فتصبح الطبقة العاملة، البروليتاريا الثورية محرك الثورة، **"قبل كل شيء تنتج البورجوازية حفاري قبرها، فسقوطها و انتصار البروليتاريا هو أيضا لا مفر منه"**.

بالنسبة لماركس، يعد هذا الصراع الطبقي عاملا من عوامل التقدم التاريخي، بنفس الطريقة، التي يشكل بها المنتج أو الاكتشاف، الذي قام به جيل من البشر أساس التحسين في الجيل التالي.

قال ماركس أن الشيوعية أساسا، هي تطور الملكية الخاصة، لقد رد على المخاوف المحتملة للنقد، من خلال الإشارة إلى أن تسعة أعشار السكان في ذلك العصر، لا يملكون شيئا على كل حال، فالأشخاص الوحيدون الذين لديهم شيئا يخسرونه، هم الأقلية، التي استفادت من الاستغلال، **"الشيوعية لا تحرم أي شخص من امتلاك المنتجات الاجتماعية، إنها تزيل فقط القدرة على الاستعباد، بواسطة تملك عمل الآخرين"**.

لماذا يجب على الصناعة، التي يعتمد عملها على عمل 100 شخص، و حتى 1000 شخص، إثراء أقلية فقط، لماذا يجب أن تكون موارد الأرض و المعادن و الأراضي و البحار تحت السيطرة الحصرية لشخص واحد لتحقيق مكاسبه الشخصية؟

و قد رد ماركس على منتقديه، الذين يزعمون أن الشيوعية تهدد استقرار الأسرة، من خلال الإشارة إلى نفاقهم، حيث أشار إلى أنه في النظام الصناعي للبورجوازية، كان الأطفال محرومين من طفولتهم، لا يتلقون أي تعليم، و لكنهم عوملوا "كمجرد أدوات للتجارة، كمجرد أدوات عمل"، و فيما يتعلق بالعلاقات الزوجية، فقد تم تدميرها أيضا من طرف طبقة المال، التي تستغل الزوجات و الفتيات جنسيا، و حيث الأعضاء "يجدون متعة فريدة في إغواء بعضهم البعض".

"بدلا من المجتمع البورجوازي القديم، بطبقاته و تناقضاته الطبقية، تنشأ رابطة يكون فيها التطور الحر لكل فرد شرطا للتنمية الحرة للجميع"، لكنه قال، أن هذا لا يمكن أن يحدث إلا برفض جميع الظروف الاجتماعية القائمة بقوة، و كتب يقول **"دع الطبقات الحاكمة ترتعش من فكرة الثورة الشيوعية" "ليس للبروليتاريين أن يخسروا سوى قيودهم، فلديهم عالم يربحونه"**، ثم أضاف هذه العبارة الشهيرة: **"يا عمال العالم اتحدوا"**.

في الواقع، فإن ماركس يتحدث عن عالمنا اليوم، و هذه هي المشكلة، و السبب في سوء فهمه في زمانه، وسوء فهمه في القرن 20، لأنه مثل كل المفكرين العظماء لم يخاطب بالضرورة جيله، أو حتى جيل بناته، و أولئك الذين اتبعوه، إنه في نواحي كثيرة، كان يتحدث إلينا، أي يتحدث إلى عصرنا.

دفيد بيستيو :

بالنظر إلى أصوله، لا يوجد شيء كان يهيئ ماركس لمثل هذه الحياة، فما الظروف التي قررت حياته المهنية؟

ماري غابرييل :

كان ماركس ابن محامي يهودي في مدينة تريف في الراين السفلى، كان والده من أبناء الثورة الفرنسية عندما احتل نابوليون منطقة الراين السفلى، و قد تمكن والد ماركس من اكتشاف أفكار الثورة الفرنسية عن "الحرية و المساواة و الإخاء"، لقد كان تأثر ماركس ببروسيا أقل من تأثره بالأفكار الفرنسية، لكنه تلقى أيضا تكوينا قويا وسط تقاليد ألمانية رومانسية، لذلك عندما أنهى دراسته، كان يفكر أنه سيعمل على إنقاذ البشرية.

في ذلك الوقت بالطبع، لم يكن يعرف كيف تبدو الإنسانية، لأنه لم يغادر تريف أبدا، لكن في سلسلة من التحركات من أجل دراسته، وجد طريقه نحو بون و برلين، ثم كولونيا، و في كل رحلة تعلم أن يعرف فلسفات جديدة، مع كل تحرك، كان العالم الذي يحيط به يتغير بشكل كبير، و لحسن الحظ بالنسبة لنا، فإني أعتقد، من وجهة نظر تاريخية، أن واحدة من التغيرات التي حدثت في ذلك الوقت، أنه أصبح من الصعب جدا على شاب مثل ماركس الحصول على وظيفة مدرس في الجامعة، فلو نجح لكان بإمكانه ببساطة أن يصبح فيلسوفا مثل الآخرين، الذين كتبوا كتبا ليقرأها طلابه، و ربما قرأها البعض منا، لكنني

متأكدة من أن كتاباته لن تكون هي نفسها، و لن تكون قد أثرت على العالم بنفس الطريقة، و هكذا كان على ماركس أن يصبح صحافيا، و هو البديل المفضل للأشخاص من طبقته، الذين ليس لهم خيارات أخرى، و هو أمر يلائمه جدا، فإن ما أراد أن يدرسه حقا هو المجتمع. لقد تلقى تكوينا فلسفيا، لكنه يريد دراسة المجتمع الذي يحيط به، لأن هدفه كان هو تغيير الإنسانية، كان عليه أن يفهم الرجال و النساء من حوله، و قد فتحت له الصحافة طريقا معبدا، لكن بسبب الرقابة في بروسيا، فقد اضطر إلى الذهاب إلى باريس للكتابة و التعبير عن نفسه بحرية.

انتقل ماركس و زوجته الشابة جيني فون ويستفالن، ابنة البارون البروسي إلى باريس، و التي تبين أنها كانت خيارا سعيدا، لأنه في ذلك الوقت، كانت باريس نقطة التقاء، من سيصيرون الثوريين العالميين، الذين انجذبوا كلهم نحو هذه المدينة، حيث كانوا أحرارا في القول و التفكير و التصرف و التخطيط دون مضايقة الحكومة، لقد كانت باريس إذن، بمثابة مختبر لجميع الإيديولوجيات، التي سادت في القرن 20، و التي ولدت في القرن 19 : الاشتراكية، الشيوعية، الرأسمالية و الفوضوية، لقد كانت المختبر، الذي وجد فيه ماركس نفسه، و هناك سيلتقي بعض الناس، الذين سيبصمون ما تبقى من حياته، و في مقدمتهم فردريك انجلز. كانا يعرفان بعضهم البعض عن طريق كتاباتهما، لكنهما استطاعا في النهاية أن يلتقيا في مقهى في باريس، و حسب ما يحكى، فقد تحدثا لمدة 10 أيام و 10 ليال، لقد أصبحا صديقين، و الأهم من ذلك، فقد أصبحا متعاونين طيلة الحياة، و هكذا بقي ماركس في باريس للعمل و الكتابة لأطول فترة ممكنة، إلى أن أجبرته الحكومة البروسية على المغادرة مرة أخرى بتدخل من الحكومة الفرنسية.

دفيد بيستيو :

و ما الذي أتى به إلى بروكسيل ؟

ماري غابرييل :

بالفعل، فذلك ما أتى به إلى بروكسيل، و هي مدينة أخرى عظيمة بالنسبة إليه، من جهة، لحجمها الصغير، و هذا جعله على اتصال بالمزيد من المهاجرين الألمان، و في هذه المرحلة ما زال يستهدف بروسيا و ألمانيا بشكل عام، و كان وجوده ضمن مجموعة من المهاجرين الألمان في بروكسيل، قد سمح له بتطوير قاعدة هنا، و من الناحية التاريخية، عندما نتحدث عن حزب ماركس، حتى قبل الحديث عن الحزب الماركسي، فإننا نشير إلى دزينة من الأشخاص حول ماركس في بروكسيل في ذلك الوقت، و ضمن عددهم يجب أن نعد انجلز، ربما بقي هناك عشرات الأشخاص ليسوا بأقارب، و الذين شكلوا القوات الصدامية لحزب ماركس، و يمنحك هذا فكرة عن حزب سياسي يبدأ من لا شيء تقريبا، يبدأ من لا شيء و يصبح حركة غيرت تاريخ العالم.

منذ بروكسيل ... و كان ماركس في بروكسيل في سنة 1848، عندما حدثت الثورات، التي اجتاحت أوروبا القارية، و بالطبع أراد أن يكون في قلب كل هذا، لذلك عاد إلى باريس، التي أصبحت بمثابة أوديسا بالنسبة لماركس و أسرته، التي تكبر، لقد كان لديه ثلاثة أطفال صغار في ذلك الوقت، و في المجموع سيكون له سبعة أطفال، لكن نجا منهم ثلاثة فقط، بسبب ظروف ماركس المعيشية، فلم يقتصر الأمر على أنه أجبر على السفر مرارا و تكرارا من بلد لآخر لتجنب السجن، ما دام أنه أصبح أكثر راديكالية، بل نفذت مصادر دخله، و عند وصوله إلى انجلترا كان مفلسا عمليا. لقد كانت انجلترا الإعلان الأخير للثوريين، و المثير للاهتمام أن ذلك كان بالنسبة للملوك المخلوعين أيضا.

يبدو أن جميع أولئك الذين طردوا من بلد ما من قبل الشعب، أو من قبل الحكومة، وجدوا أنفسهم في مكان ما في انجلترا، و خاصة في لندن، و كان ماركس من بين هؤلاء.

دفيد بيستيو :

يقوم عمل ماركس الرئيسي "رأس المال" بتحليل عميق لمنعطفات النظام الرأسمالي، و كشف قانون القيمة، و العديد من المفاهيم الاقتصادية الأخرى، التي تعارض بشكل جذري النظريات الاقتصادية الليبرالية الكلاسيكية، لكن لماذا انطلق من "نقد الاقتصاد السياسي"، الذي نحتفل به هذا العام، و لماذا استغرق 17 سنة لكتابة الجزء الأول؟

ماري غابرييل :

في سنة 1851، عندما كان في لندن و قرر أن يكتب "رأس المال"، في هذه المرحلة أصبح مفهوم الرأسمالية شائعا، فقد كانت الفكرة تدور في الأجواء منذ الأربعينات، لكنك ستلاحظ أنه حتى في "بيان الحزب الشيوعي" لم يستخدم ماركس أبدا كلمة الرأسمالية، و هذا يبين إلى أي درجة كان المفهوم جديدا، و هكذا في هذه السنة، عندما قرر أن يكتب "رأس المال"، كان يكافح ضد نظام لم يفهمه سوى القليل من الناس، أو حتى كانوا قادرين على تسميته، و في الوقت نفسه كتب عن انهياره، الذي اعتقد أنه امر لا مفر منه، بسبب نقاط الضعف الجوهرية للرأسمالية، لذلك طلب من الناس أن يقوموا معه بتلك الخطوة العملاقة من الأمل، كان الأمر أشبه برمي قرائه في مستقبلنا. و أعتقد أن هذا جزء من الأسباب التي جعلته يستغرق مدة طويلة لتأليف هذا الكتاب، لقد كان يكتب عن نظام يتطور بسرعة كبيرة، و في جميع أنحاء العالم، فبمجرد أن يقول "ها أنا أقبض عليه" حتى كان يحدث تغيير هائل في مكان آخر في العالم، و كان عليه أن يعود إلى مكتبه، لقد كانت حياته أشبه بسعي رائع وراء نظام، كان يحاول أن يشرحه لساكنة لا تعرف حتى وجود مثل هذا النظام، في حين أنه كان سبب كل آلامها.

دفيد بيستيو :

لقد أوضحت أن ماركس كان ينتمي إلى عائلة بورجوازية من تريف في ألمانيا، و أنه تزوج أرستقراطية، و في حياته واجه الوضع الأكثر حرمانا في المجتمع، لكن ما الذي جعله يتخذ موقفا لصالح العمال؟

ماري غابرييل :

عندما أجبر ماركس على الانتقال إلى بروكسيل سنة 1845، دعا فردريك انجلز نجل مالك مصانع في الراين السفلى و انجلترا في مدينة مانشستر، ماركس إلى مرافقته هناك: عندما كان صغيرا، كان انجلز يعمل في مصانع والده، و قد كان يرغب في الدراسة في الجامعة، لكن والده كان يخشى أن ينتهي به المطاف في مجموعة يسارية هيجلية، و أراد أن يبقى فردريك في الشركة العائلية، لذا أرسله إلى مانشستر، الشيء الذي كان ناجحا جدا، ما دام أنه في مانشستر تلقى نوعا آخر من التعليمات، لقد تعلم كيف يعمل النظام الصناعي. في ذلك الوقت، كانت مانشستر مركز التصنيع العالمي، فقد كان لديها أكبر صناعة للقطن، و كان النظام الصناعي يستفيد من العمال الأكثر استغلالا على وجه الأرض، هؤلاء العمال، الذين لم يعاملوا معاملة أفضل من الحيوانات، فقد كان على عشرين شخصا أن يتشاركوا في غرفة تتسع لشخص واحد، و يتقاسم 120 شخصا مرحاضا واحدا في الخارج، و كان عليهم أن يعملوا سبعة أيام في الأسبوع، ثم التضحية بالأطفال و الرجال و النساء، و الأسر بكاملها من أجل المصنع.

و عوضا من البقاء في مكتبه في المصنع، و في النوادي، حيث يوجد ارباب المصانع جنبا إلى جنب مع أقرانهم، تعرف انجلز على إحدى العاملات تدعى ماري بورنس، التي أخذته إلى الحي الإيرلندي، حي العمال، و بفضلها، و بفضل هؤلاء العمال،

تمكن من أن يقف عن كثب على كل مظاهر هذا النظام الرأسمالي "الرائع"، لقد أراد إظهار كل هذا لماركس، لذلك في سنة 1845 غادر الرجلان بروكسيل في اتجاه انجلترا، حيث مكثا هناك بضعة أسابيع.

كان يمكن لانجلز أن يعيش دون ماركس، لكن لم يكن ماركس ليعيش دون انجلز

كانت هذه الرحلة ضرورية للغاية لتطوير ماركس، لأن ماركس قبل الرحلة إلى مانشستر، وماركس بعدها، شخصان مختلفان تماما. كان الشغف و الغضب، الذين شعر بهما ماركس، و نفاذ الصبر الذي أظهره بعد مانشستر، كل هذا كان واضحا على الفور في كتاباته، و في علاقته مع المثقفين الآخرين، و هكذا تمكن ماركس من اكتشاف النظام الصناعي، و المكاتب، و كذلك ورشة العمل و قذارة مساكن العمال، بهناك حيث عاشوا، حيث ماتوا، و حيث رقصوا و أكلوا ... إنه جحيم حقيقي.

و ماركس الذي خرج من ذلك، ماركس ذلك، الذي قال إن الفلاسفة لا يمكنهم قضاء وقتهم في الحديث عن الأفكار، فعليهم التحدث عن الواقع المادي للعامل و العاملة، إنه من الضروري أن تكون قادرا على إطعام إنسان، و إلباس إنسان، و التأكد من هل لدى الأسرة شيئا تأكله، قبل طرح الأفكار حول السياسة و الفلسفة، لأنه طالما أن الاحتياجات المادية للإنسان غير مشبعة، فإن الاحتياجات الأخرى لا معنى لها، إنها بكل بساطة مجردة جدا، أعتقد أن ذلك حقا، كان لحد ما، ميلاد كارل ماركس، الذي شرع في كتابة "رأس المال".

دفيد بيستيو :

يطرح السؤال الإيرلندي في كتابات ماركس، و يمكننا القول، أنه من خلال إيرلندا طور ماركس أفكاره الأولى ضد الامبراطورية البريطانية و الامبريالية، و حتى ضد العنصرية، التي سادت في المجتمع الانجليزي، هل يمكن أن تحدثينا عن ذلك أكثر؟

ماري غابرييل :

إن المسألة الإيرلندية أمر شغل عائلة ماركس بأكملها، و من خلال انجلز اكتشف ماركس المشكلة الإيرلندية. كان هناك في مانشستير عدد هائل من العمال، الذين فروا من إيرلندا، و الذين فروا من الاحتلال البريطاني لإيرلندا، لقد دخل في اتصال مع الراديكاليين، الذين كانوا يسمون آنذاك Les feniens عن طريق انجلز و ماري بورنس و مانشستر. و أدرك ماركس، أنه بالإضافة إلى الرأسمالية، الكلمة التي كانت تنتشر في سنة 1850 – 1851، هناك مصطلح آخر اصبح مفروغا منه اليوم، و أصبح أكثر شيوعا في ذلك الوقت أيضا، هو مصطلح الامبريالية.

لقد خرج ماركس منها بخلاصة، مفادها، أنه بالنسبة للعامل، ليس في انجلترا فقط، و لكن في جميع أنحاء العالم، أنه من أجل التحرر لتحطيم النظام الرأسمالي، يجب ان يسقط النظام الاستعماري، و المكان المثالي لسقوط النظام الاستعماري هو انجلترا، و نقطة الضعف في انجلترا كانت هي إيرلندا، لأنها كانت تتوفر أصلا على ساكنة غاضبة و ثورية. و قول ماركس مع نفسه، أنه مع القليل من التعليم، يمكن لهؤلاء العمال أن يتعلموا كيف يعودون إلى بلادهم و طرد الانجليز منها، لقد اعتقد، و كان على حق، أنه بوقاحة، يطرد البريطانيون الإيرلنديين من إيرلاندا، من أجل تحويل البلاد إلى ضيعة زراعية، من أجل تغذية

الساكنة البريطانية، التي تعرف نموا، لذلك استبدلوا العمال الإيرلنديين، الذين فروا إلى مانشستر، بملاك الأراضي البريطانيين، الذين أقاموا مزارع يرعون فيها حيواناتهم لإطعام السكان البريطانيين.

البروليتاريون الانجليز و الإيرلنديين

"الشيء المهم، هو أن كل مركز صناعي و تجاري في انجلترا، يتوفر الآن على طبقة عاملة مقسمة إلى معسكرين معاديين : البروليتاريون الانجليز، و البروليتاريون الإيرلنديون، العامل الانجليزي المتوسط يكره العامل الإيرلندي، الذي يرى فيه منافسا يحط من مستوى عيشه [...] لديه تحيزات دينية و اجتماعية و قومية ضد العمال الإيرلنديين، إنه يتصرف إلى حد كبير مثل الفقراء البيض في مواجهة الزنوج في ولايات الرقيق القديمة في الولايات المتحدة الأمريكية [...] هذا التناقض هو سر عجز الطبقة العاملة الانجليزية، على الرغم من تنظيمها، هذا هو سر إبقاء الطبقة الرأسمالية في السلطة، و الطبقة الرأسمالية تدرك ذلك تماما". (رسالة من ماركس إلى سيجفريد ماير و أوغوست فوغت، في نيويورك، 9 أبريل 1870) .

هكذا قضى ماركس الكثير من الوقت، و بذلت بناته الكثير من الجهد لمساعدة الإيرلنديين.

لم يمنح لماركس الكثير من المال لأجل هذا، و بالتأكيد القليل منه لبناته، لقد ركزت جيني ابنته الكبرى على إطلاق سراح السجناء الإيرلنديين من السجون البريطانية، و كتبت سلسلة من الرسائل، التي نشرت في الصحف الفرنسية، و التي أدت بالفعل إلى إطلاق سراح بعض السجناء الإيرلنديين الأكثر شهرة، لكن مع الأسف، فلأنها كانت امرأة لم يمنح لها الكثير من الفضل في ذلك.

دفيد بيستيو :

ورد في كتابك، أن ماركس أسيء فهمه من قبل معاصريه طوال معظم حياته، لكن، و للمفارقة، كان معروفا كثيرا، عندما عرفت به المؤسسة الأوروبية نفسها خلال كومونة باريس سنة 1871 . كيف أثرت هذه الحلقة أيضا عن ما كانه ماركس، و الطريقة التي كان ينظر إليه بها في ذلك الوقت ؟

ماري غابرييل :

كان ماركس محاصرا في لندن بعد أن تم طرده من فرنسا، دون أن يكون له إذن بالعودة، لذلك كان قائدا ل "الجمعية الدولية للعمال" من بعيد، التي شارك بعض أعضائها في كومونة باريس. لم تكن بأي حال من الأحوال القوة المهيمنة، لكن ماركس كان يتراسل معهم، و كانت الرسائل تمشي ذهابا و إيابا، لكي تأتي له بالتقارير، و كان بالأساس مشاركا مهتما، لكن لم يكن أبدا قائدا. في الواقع، و في بداية الأمر، اعتقد هو و انجلز، أن الكومونة كانت فكرة خاطئة محكوم عليها بالفشل.

كانت كومونة باريس ثورة عفوية يقودها السكان، الذين وجدوا أنفسهم محاصرين لأول مرة في باريس لمدة أربعة أشهر من قبل البروسيين، الذين أحاطوا بالعاصمة، بعد استسلام الحكومة الفرنسية، فقرر الباريسيون ألا يتخلوا عن مدينتهم، سواء كانت الحكومة الفرنسية، التي لم يعودوا يثقون بها، أو البروسيين، الذين نظروا إليهم كغزاة، لذلك ثاروا دون الحاجة إلى محرضين خارجيين لتحفيزهم. لكن عند نهاية الكومونة، بما أن الحكومة الفرنسية أرادت من جنودها أن ينقلبوا ضد الفرنسيين، ضد الباريسيين، كان عليها أن تقنع الجمهور، بأن الأشخاص الذين يقودون الكومونة، و أن فكرة الكومونة نفسها، لم تكن فرنسية و لا سخطا باريسيا ضد الحكومة الفرنسية، لكن كان أحد الأجانب، أحد الألمان من لندن، هو الرجل الشرير

وراء كومونة باريس. هكذا بدأت الحكومة حملة، من فم إلى أذن، لكي تصبح إدانة دولية مدوية لشخص ألماني يدعى كارل ماركس في لندن، و الذي أطلق عليه "طبيب الإرهاب الأحمر"، و الذي وصف أنه الدماغ، الذي ليس أنه يهدد باريس فقط، الذي لم يكن فقط مسؤولا عن كومونة باريس، أو الفوضى التي سادت فيها، لكن لديه جيوش من مشعلي الحرائق، الذين سيهددون لندن أيضا و ربما حتى شيكاغو. تاريخيا، هذا ما تفعله الحكومات عندما تريد تجاهل حقيقة أن المشكلة لها جذورها في مجتمع معين ، يجب أن يقنعوا السكان، أن الذي يقوم بالتمرد ليس شعبهم، إنما هناك شخص غريب يقوم بسحب الخيوط، هكذا أصبح ماركس مشهورا. لقد كتب كتابا رائعا بعنوان "الحرب الأهلية في فرنسا"، إنه كتاب ممتاز، ممكن أن تضع يدك عليه، و علاوة على ذلك، فقد كان أكثر أعماله قراءة قيد حياته.

دفيد يبستيو :

هل يمكنك التحدث عن مساهمة انجلز في نشر الأجزاء الأخيرة ل "رأس المال؟ لأنه إذا كان ماركس قد كتب الجزء الأول، فإن الجزئين الأخيرين صدرا بعد وفاة ماركس بفضل عمل انجلز على أساس ملاحظات ماركس، إنه لأمر مثير للإعجاب أن هذا الرجل، الذي بلغ من العمر عتيا (أكثر من 70 سنة) حقق مثل هذا العمل، و بمثل هذه القوة.

ماري غابرييل :

شكل انجلز جزءا من تاريخ ماركس، و في الحقيقة لا يوجد تاريخ ماركس بدون تاريخ انجلز، و تعد هذه واحدة من أعظم الصداقات في التاريخ، لقد قدم انجلز نفسه باعتباره غازل القطن و عضوا في المدفعية الملكية، كان له من التواضع ما لم يكن لشخص في مقامه، لقد كان مفكرا لامعا، و كان يمتلك الحماسة، التي افتقر إليها ماركس، تعطش للحياة، تعطش للأفكار.

عندما التقى ماركس في باريس خلال تلك الأيام العشرة الشهيرة، كان يبحث عن شخص أو فكرة يكرس نفسه لها، و رأى ذلك في ماركس. لقد فهم أن هذا الرجل يحتاج إلى الإلهام و الحماية، لأن ماركس كان الباحث و الفيلسوف النموذجي، الذي لم يكن جيدا في إدارة المشكلات اليومية، لأن عقله كان دائما في مكان آخر، لقد كرس انجلز نفسه طيلة حياته لتوفير الاحتياجات المادية لعائلة ماركس، لقد عاد لمصنع والده، الذي يكرهه، لكسب ما يكفي من المال لمنحه لعائلة ماركس من أجل البقاء.

لم ينشر ماركس عند وفاته إلا كتابا واحدا من "رأس المال"، و كان من المفروض أن ينشر منه أربعة. لقد كان يكتب باستمرار، لكن لم يكن أحد يعلم أين وصل في الكتابة، و أي حالة كانت عليها، لم يكن يريد الحديث عن ذلك مخافة أن يقول أحد أنه يريد نشره، فذلك كان سيمارس ضغطا عليه، الشي الذي لا يستطيع تدبيره.

عندما توفي ماركس، قام انجلز بفحص أوراقه، و اكتشف أن الكتاب الثاني قد اكتمل تقريبا، لكن، كانت أيضا هناك مئات الصفحات من الملاحظات الخاصة بالمجلد الثالث، و مادة خام جدا لما يمكن أن يكون المجلد الرابع.

اعتقد انجلز أنه كما فعل أثناء حياة ماركس، كان عليه الاستمرار في هذا العمل حتى بعد وفاته، كان عليه الاستمرار في حماية ماركس و الحفاظ عليه، و بما أن ماركس لم يعد حاضرا جسديا، فإن الطريقة الوحيدة للحفاظ عليه كانت هي نشر أفكاره، و ليس ذلك ما فعله فقط، بل كذلك أبقى على قيد الحياة المنظمات العمالية، التي أنشأها ماركس، كما أشرف على الأممية الثانية، لقد كان لا يكل. في النهاية، عند وفاته، كانت بنات ماركس في مستوى استعادة المشعل.

لقد كان من الممكن وجود انجلز بدون ماركس، لكن لم يكن ماركس ليوجد بدون انجلز.

دفيد بيستيو :

كتابك لا يتحدث فقط عن ماركس و انجلز، و لكن أيضا عن جيني ماركس و بنات ماركس، فدورهم لا زال حتى الآن مهملا، ف "الحب و رأس المال" ليس سيرة لحياة ماركس، و لكن أيضا سيرة أسرة ماركس، زوجته و بناته الثلاث. إنه النقطة القوية في كتابك، ما ذا كان تأثير جيني على حياة ماركس؟ ما هي الصعوبات، التي واجهت نساء القرن 19، اللائي كن يرغبن في تغيير العالم؟

ماري غابرييل :

كانت جيني بمثابة مرسى لماركس، فلولاها لكان ما أطلقه عليه والده "مفكر يدور على نفسه في غرفته"، كان سيقضي حياته، و أنفه وسط الكتب، فقد سمحت له جيني بالتعبير و الإفصاح عما في صدره، الخروج من فقاعته، فقاعة المفكر، و جعلت منه كائنا اجتماعيا. لكن بالإضافة إلى ذلك، فقد أعطته الأمن و الثقة التي يحتاجها، وإذا كان شخص ما يحلق عقليا، فهو بحاجة إلى شخص ما للحفاظ على قدميه على الأرض، و هذا ما فعلته. علاوة على ذلك، فقد كان حقا يحترمها جدا على المستوى الفكري، لأنه معها، يمكن أن يتبادلا الأفكار، و يمكنه أن يقوم بذلك معها و مع انجلز.

بطبيعة الحال، تاريخيا، فالفضل في ذلك هو لانجلز تقريبا، و أبدا بالنسبة لجيني ، و مع ذلك منذ بداية علاقتهما، عامل ماركس جيني فكريا على قدم المساواة، لم يكن ليستطيع تحمل أن يكون مع أحد لا يمكن أن يناقش معه النقط الأكثر حساسية عندما تعن له، فعلى سبيل المثال، عندما كان عليه أن يكتب "بيان الحزب الشيوعي"، كانت جيني هي من قامت بنسخه، ولم يكن دورها يقتصر على أخذ النقط، بل كان تبادلا حقيقيا للفكر. من نواحي كثيرة، فإن جيني هي الشخص، الذي

سمح لكارل ماركس عقليا و عاطفيا و جسديا، أن يكون كارل ماركس، لقد سمحت له بمتابعة ذكائه الكبير هناك إلى حيث يؤديه، و لا يهم الزمن الذي سيستغرقه، لقد كان عليها أن تقوم بتضحيات، كما هو الحال بالنسبة لجميع نساء القرن 19، وكما هو الحال لبعض نساء القرن 20، و بعض نساء القرن 21 سيقومن بها أيضا.

لقد ضحت بنفسها من أجل أن تتبعه إلى حياة الفقر، الفقر المدقع، هي التي كانت ابنة أرستقراطي، كان يمكن أن تعيش حياة أرستقراطية في ألمانيا، و كان شقيقها وزيرا للداخلية في بروسيا، لقد جاءت من واحدة من أكثر العائلات الأعلى شأنا في الراين السفلى، و مع ذلك فقد تخلت عن كل شيء، لأنها أحبت كارل و احترمت أفكاره. ثم أمضت بناته الثلاث حياتهن في العمل من أجله، لقد كرسن حياتهن من أجل فكرته، فقد كن سكرتيراته و باحثاته، و مع الأسف، فقد تزوجن أيضا رجالا ثوريين، كانوا أقل بكثير موهبة، نسخ متدنية جدا من والدهم.

ساهمت بنات ماركس الثلاث في الحركة الماركسية، التي تدين لهما بالكثير، لكن كان للثلاثة مصير مأساوي، فإثنتان منهن انتحرتا هكذا و ببساطة.

عندما يكرس المرء حياته لهدف، و يكون الفرد على استعداد للتضحية بكل شي ء من أجل ذلك المثل الأعلى، أو ذلك الشخص، فالمرء حتما يتخلى عن جزء من نفسه، و هؤلاء الشابات الثلاث ضحين بحياتهن تماما، كما أعطت جيني زوجته حياتها، لكن إذا طرح عليهن السؤال "هل أنتن نادمات؟ سأشك كثيرا في أن أحدا منهن سيقول نعم، لأنه حتى لو أنه من الناحية المادية لا يملكن شيئا، فقد كان لهن عالما فكريا كاملا، لقد كن في الخط الأول للثورة، لقد كن وسط الإعصار: أفكار هذا الرجل، كانت لهن حياة غنية، عميقة و متوحشة، لقد كن فقيرات فقط في عيون العالم.

دفيد بيستيو :

غالبا ما يتم توجيه اللوم لماركس، كونه كان غير ذا اهتمام فيما يخص مسألة الجنسين، و كان عنده بالأخص مفهوم ذكوري للطبقة العاملة، و في تأويل حياته يعتبرونه باتريارکيا، هل من الصعب أن نقول أن ماركس كان نسويا؟

ماري غابرييل :

لقد كان ماركس نتاج القرن 19، و في "جمعية العمال الدولية"، فكلمة عامل هي بكل تأكيد ذكورية، و إن كان كثير من النساء هن أيضا كذلك، خاصة في زمن الكومونة. كان بعض المبعوثين الأكثر شجاعة، الذين كان ماركس يرسلهم إلى فرنسا نساء شابات، و كان عدد منهم من بناته، لكن ماركس لم يعالج حقا مسألة النسوية أو حقوق المرأة، لم يكن يعتقد حقا أنه يحتاج إلى التمييز بين الرجال و النساء عند وصف حقوق العمال، لأن العمال الذين تحدث عنهم في المصانع لم يكونوا رجالا فقط، بل نساء و أطفالا أيضا، لذلك، فعلى الرغم من أنه يتحدث عن العاملات في "رأس المال" فهو لا يعالج قضية النسوية[1].

1 . هناك التباس شائع حول ماركس و المرأة، و هناك كذلك صورة نمطية قامت بترويجها الحركات النسوانية الراديكالية، حول كارل ماركس، تقوم على فكرة أنه كان رجلا محافظا و باتريارکيا على مقاس عصره و زمانه، و لذلك جاءت أفكاره فارغة من أي محتوى نسائي تحرري، و ليس غائبا عن أنظارنا أن هذه الحركات تنهل من أطروحات ترفض أن ترى أن فقدان المرأة لحريتها لا علاقة له بالمجتمع الطبقي ، كما أن تحررها غير مرتبط بالتحرر الإنساني الشامل، و لذلك تظل متقوقعة في نضالها المحدود من داخل النظام الرأسمالي، لأنها ترفض الربط بين الاستغلال الاقتصادي الطبقي و الاضطهاد الجنسي ، و دون الدخول في مناقشة أطروحاتها (انظر منشورات الموقع) فبعجالة، يمكن القول أن الحديث عن المرأة و تحررها، كان حاضرا منذ كتاباته الأولى خاصة الفلسفية منها، بل أن صدور كتاب "أصل العائلة"، الذي نشره انجلز، كان في أصله مخطوطا لماركس، و قام هذا الأخير بصياغته تلبية لوصية ماركس، و نشره سنة 1884، إضافة إلى هذا، يمكن القول أن فضل ماركس على النساء كما تقول كلارا زتكين كثير، و أهمه، أن ماركس فك لأول مرة في الفكر الإنساني لغز اضطهاد المرأة و أسبابه الحقيقية، لما أسس لأول مرة علما جديدا للتاريخ، هو المادية التاريخية (لمزيد من الاطلاع، الرجوع إلى مقالة "فضل ماركس على المرأة" لكلارا زتكين، نشر في موقع "8 مارس الثورية").

فيما يتعلق بأسرته و بناته و زوجته فقد كانوا منخرطين عن كثب في جميع جوانب عمله، فالمسألة كانت قضية أسرة، لقد شكلت أفكار ماركس شركة عائلية، و لم يفكر أبدا أنهن غير قادرات تماما على فهم ما كان يتحدث عنه، بل الإتيان بالأفكار، أو تأويل أفكاره و تمثيله، فعلى سبيل المثال، عملت ابنتاه الكبرى لورا و جيني في اسبانيا و فرنسا، خاصة لورا مع زوجها بول لافارغ، الذي كان ممثلا حقيقيا لماركس، يسعين جاهدات لنشر الماركسية في اسبانيا، و قامت لورا بالكثير من الترجمات لعمل ماركس، إذن، كانت بناته منخرطات في كواليس الكتابة، و هما الأكبر سنا، جيني في الصحافة، و لورا في الترجمات.

حسب ماركس، لا يمكن استبدال جزء من حكومة، لأنه إذا بقي جزء واحد فقط من النظام القديم، فسيؤدي ذلك إلى تعفن الباقي.

كانت أوليانور، أصغر بناته مقاتلة شارع، لقد كانت تجسد بالمعنى الحقيقي نظريات والدها، إنها بطريقة ما، مثال على ما يمكن القيام به بالاستيلاء على أفكار ماركس، لقد جلبت هذه الأفكار إلى العمال، و أنشأت نقابات وأحزاب سياسية.

أظن إذن، أنه حتى و إن لم يثر ماركس مسالة النسوية، إلا أنه لم يميز ضد المرأة بأي شكل من الأشكال، إنه فقط موضوع لم يعالجه. لا ينبغي للمرء أن يفكر في زوجته و بناته، و هن في الحقيقة يعملن غالبا معه في المنزل، في الكواليس، كإشارة إلى أن ماركس كان يمكن أن يكون طاغية، ففي القرن 19 لم تتح للنساء فرصة القيام بما يقمن به اليوم.

إذن، كان دور جيني كزوجة، أن تكون لوحة تنسيق لأفكاره، أو أن تكون ناشرة لكتاباته، أو مساهمة في أفكاره، و إذا لم تطالب باعتراف بهذا، فليس لأن ماركس لا يريد ذلك، إنه فقط الدور، الذي كان للنساء في القرن 19، لكن في هذا النوع من الأنشطة المسيج بالأعراف الاجتماعية، كانت هؤلاء النساء تقدميات جدا، وجنودا منخرطين بشكل عميق في أول جيش لماركس.

دفيد بيستيو :

ماذا عن أوليانور، البنت الصغرى لماركس ؟

ماري غابرييل :

شاركت أوليانور بشكل خاص في تأسيس "حزب العمل البريطاني"، و إذا كان ماركس قد أدرك أن الاحتياجات المادية للإنسان يجب أن تكون لها الأولوية، فهذا يعني أن حزبا سياسيا عليه الاهتمام بمدة العمل و بالأجر، هل كان العمال يكسبون ما يكفي للعيش من أجل البقاء؟ لقد استعادت أوليانور نظرية والدها و حولتها، مع الأشخاص الذين تشاركت معهم نفس الأفكار، إلى عمل سياسي، لقد طوروا حزبا كان يعمل باسم العمال.

كان ينظر إلى اشتراكيي ذلك العصر، و الجيل السابق، جيل أوليانور على أنهم ليبراليون ضعفاء، أو ما يمكن تسميته هكذا، اليوم.

كان على جيل إليانور، و الأشخاص الذين يعملون معها في لندن إقناع النقابات، أن الاشتراكيين يمكن أن يساعدوهم على تنظيم الإضرابات بإنشاء صناديق الإضراب. في البداية عرفت إضراباتهم نجاحا ملحوظا، و أنا أتحدث عن إضراب عمال الرصيف، الذي جمع عمال لندن و انجلترا الأكثر اضطهادا، و أعطتهم الوسائل لمهاجمة شركات الشحن، التي كانت قوية للغاية، و تحقيق الانتصار. أعتقد أن إليانور استعادت نظرية ماركس و طبقتها بشكل ملموس على مستوى نقابي، لقد قامت بعمل هائل، لكن حياتها تحطمت بسبب أزمة شخصية، لكن، نعم، وسعت هي و أخواتها جاذبية الماركسية، و نشرها في اسبانيا و فرنسا، لكن إيليانور هي التي، من خلال عملها أعطت الحياة لنظريات ماركس.

دفيد بيستيو :

لا يتحدث كتابك عن حياة ماركس فحسب، بل يتحدث أيضا عن السنوات التي تلت وفاته، عندما، بمعنى آخر، تحققت أفكاره، تحدثت عن انجلز، سنوات بعد وفاة ماركس، أنه ذهب إلى مظاهرة، و أنه قال لإيليانور ماركس : "فقط لو كان ماركس قد رأى هذا" ...

ماري غابرييل :

نعم أنت على حق تماما، هذه الأفكار تأتي من ماركس، فكما تعلم، عندما تعمل على مرض ما، فهناك الدراسات المخبرية، و لكن كذلك، هناك تجارب سريرية، حيث تعمل على ناس، و يمكن القول أن الجيل الموالي ينطبق عليه ذلك الانتقال إلى التجارب السريرية. يجب رؤية التطور، فقد كان هناك حوالي 17 شخصا في بروكسيل في حزب ماركس، حتى أنهم لم يطلقوا على أنفسهم اسما قبل الأممية الأولى (1861)، و هي منظمة دولية للعمال، انضم إليها ماركس للتو، و التي أصبح زعيمها النظري، ثم اختفت سنة (1872) لأن اللحظة حقا لم تكن مواتية، و 15 سنة بعد ذلك (1889) في الأممية الثانية، كان هناك جيل جديد، و كان انجلز آنذاك رجلا مسنا، كان هناك جيل جديد تماما، و توسعت القاعدة، لم يكن هناك عمال فقط، و لكن أيضا مثقفون، و هكذا كانت لهم قاعدة أكثر صلابة لبناء الأرضية المقبلة. عندما تفكر في الأمر، ترى أنه لم يكن هناك سوى 11 شخصا في جنازة ماركس، و في العام التالي في ذكرى وفاته كان هناك حوالي 3000 شخصا في هايد بارك يشيدون به. هذا يبين مدى سرعة التزايد، لقد كان جزء من ذلك يرجع إلى كون الناس يكتشفون "رأس المال"، لأنه في هذا الوقت ترجم إلى الفرنسية و الروسية ... ليس لأن الحكومات أصبحت متعاونة فجأة، أبدا، بل السبب أن العمال بدأوا في إسماع صوتهم. عندما أصبح العمال الأوائل أعضاء في البرلمان الانجليزي، فهم لم يكونوا أولئك الرجال، الذين كانوا يمثلون العمال حتى ذلك

الحين، أي الاشتراكيين من الطبقة العليا، بل كانوا عمالا حقيقيين في ملابس العامل، و قد أصبح ذلك ممكنا بفضل النقابات، التي زودتهما قاعدة، التي كانوا يحتاجون إليها لتشكيل منظمة للانضمام إلى حزب سياسي.

دفيد بيستيو :

لقد وجدت مهما ما قلته حول الأجيال المختلفة، لقد أنهيت كتابك مع دفن لافارغ صهر ماركس، و في تلك اللحظة هناك جيل جديد من القادة، جوريس، بلوم، لينين ...

ماري غابرييل :

نعم، لأنه بالنسبة للينين، كان لافارغ رجلا عجوزا، لقد كتبت في نهاية الكتاب، أنه عندما قام لينين بتأبين في جنازة لافارغ، هناك تقرير للشرطة يشير إلى تدخل أحد الروس المجهولين، إنه لينين، لكن لافارغ خلال معظم الفترة السابقة مثل الجيل الأصغر لماركس، و في كل جيل توسعت القاعدة، و تنامى استيعاب ماركس و أفكاره، و أعتقد أن انجلز كان عليه أن يدرك أن أفكار ماركس كانت راديكالية للغاية عندما كتبها، بحيث أن ذلك يستغرق فعليا، أجيالا، و اليوم أيضا، أعتقد أنه ربما فقط الآن بدأنا قراءتها بنوع من الفهم المطلوب. أعتقد أنه في القرن 20، كانت هناك العديد من الاختلافات و التفسيرات للماركسية، لكن اليوم إذا قرأنا "رأس المال" من وجهة نظرنا، أعتقد أن الأمر رائع، لأنه تحدث بالفعل عن عالمنا كما هو، و أعتقد أن هذا هو الحال في الغالب.

بالنسبة للأفكار الكبيرة، يمكننا دائما تفسيرها من خلال أعيننا الخاصة، هي لا تموت، تتطور معنا و مع المجتمعات، مع تقديمها الإجابات لنا، لكن يظهر لي اليوم بالأخص، بأننا نحن في نقطة، حيث ماركس يتكلم فيها حقا عما نعيشه، و الوضع الذي نحن فيه.

دفيد كيستو :

هناك اليوم حركات جذرية في أوروبا، تستلهم من لاكلو، و من شانتال موف، مثل بوديموس، يؤمنون ب "ثورة سياسية" و ذلك بفضل "قلب سريع للمؤسسات"، ماذا تظنون ؟

ماري غابرييل :

إن إحدى النقط الأساسية لماركس، هي فكرة أن السيرورة طويلة، و أن واحدة من الأخطاء التي حددها في العديد من الحركات الثورية، التي درسها، أو التي حدثت حوله، هو أنه لا يمكن استبدال جزء من الحكومة، لا يمكننا تعويض المحاكم أو البرلمان، أو أعضاء البرلمان، لأن الباقي سيظل قائما، يجب تفحص كل مظهر للحكومة، التي نريد استبدالها قبل القيام بذلك، إذ أنها تبقى حتى و لو كان جزءا من النظام القديم فهذا سيعفن الباقي، إن الحكومة الجديدة، أو الحركة الجديدة لن تنجح، و يجب أيضا التوفر على خطة واضحة جدا بشأن ما ستضعه في مكان الحكومة السابقة، إن الثورة بدون خطة ستخسر أمام ثورة مضادة. إنني أعتقد أن ماركس قد أكد على مقاربة تقدمية و مدروسة للغاية.

لقد كان متحمسا جدا، لكن لم يكن أبدا قليل الصبر في تصرفاته، و عندما نفكر في الأمر، من وجهة نظر تاريخية، فقد مرت 150 سنة فقط على صدور "رأس المال"، و هذا لا شيء، فهذا هو التسلسل الزمني الذي كان قد استشرفه.

كما تعلمون، فإن النظام الرأسمالي، الذي يصفه، يستغرق الكثير من الوقت لكي يتجذر، و يتحول، و يصبح المرض، الذي تنبأ به، و يحتاج الأمر لكثير من الوقت لكي يفهم الناس. فقط عندما نفهم نكون قادرين في الأخير أن نرى استبداله. أعتقد أنه، إذا كنت تريد التحدث عن الإطاحة بالأنظمة السياسية، أعتقد أنه من وجهة نظر ماركس، فالسيرورة بطيئة، الشيء الذي يحبط للغاية عندما نكون في معمعانها، لكنها ضرورية لنجاحها.

دفيد بيستيو :

نصيحة أخيرة.

ماري غابرييل :

أعتقد أن أفضل مقدمة لنظريات ماركس، هي كتاب انجلز الذي يسمى "انتي دوهرينغ"، إنه كتاب قصير، و قد كتب بشكل واضح للغاية، فسيوفر لك قاعدة جيدة لما كانت عليه أفكار ماركس، و أيضا فكرة عن الطريق التي يجب سلكها بعد ذلك.

جميلة صابر

2019 - 5 – 2

نشر هذا النص على موقع الشرارة في الذكرى 201 على

ولادة معلم البروليتاريا وقائد حركتها الثورية كارل ماركس